الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة عبد الحميد بن باديس

مســـــتـغـــــانم

كلية الأدب العربي والفنون

# أدبيات الرحلة الروحية عند "أبو راس الناصري المعسكري" من خلال مؤلفه:

# "فتح الإله ومنته"


***إعداد الطالبة:***

صداق آية.

***إشراف:***

د. قادة محمد.


**لجنة المناقشة:**

| الرتبة/الاسم واللقب: | اسم الجامعة: | الصفة: |
|---|---|---|
| د/ حنيفي بن ناصر. | جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم. | رئيسا(16). |
| د/ قادة محمد. | جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم. | مشرفا ومقررا. |
| د/خطاب محمد. | جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم. | عضوا. |

**السنة الجامعية: 2026/2025.**

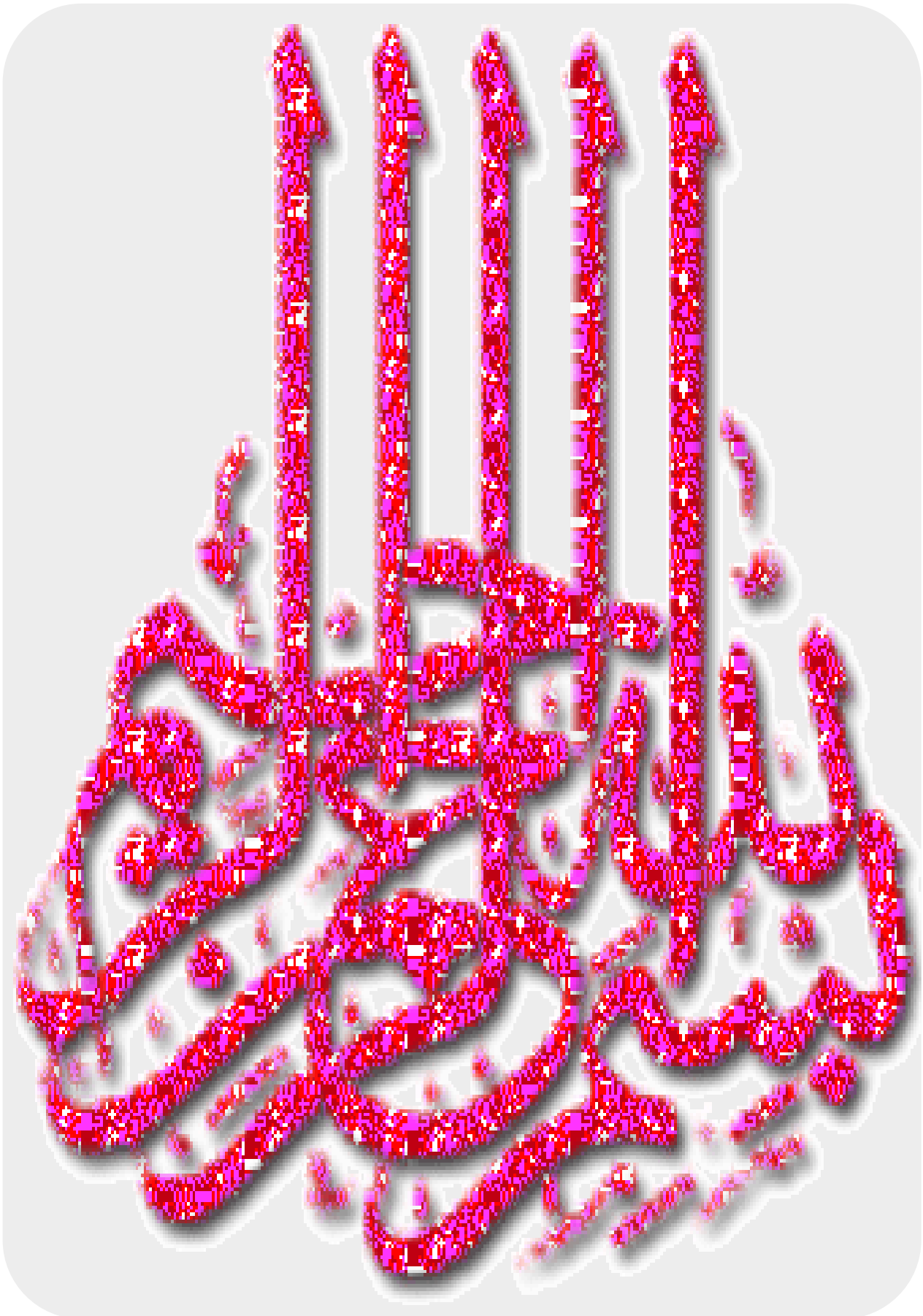

# إهداء:

إلى نفسيَّ...

آية

# شكر وتقدير

الحمد لله أولاً وآخرا، الذي بنعمته تتم الصالحات، ويفضله تتحقق الغايات، نحمده سبحانه على ما أنعم، ونشكره على ما ألهم ووفق.

ثم أشكر نفسي، على صبرها الطويل، وسعيها المتواصل، ومقاومتها لكل لحظات التعب واليأس، وعلى إيمانها الدائم بأن بعد المشقة فرجًا، وبعد الجهد نجاحًا.

وإلى **أمي الحبيبة**، تاج رأسي ونور حياتي، التي أحاطتني بحنانها، وسقتني من دعواتها الصادقة، فكانت سر نجاحي وطمأنينة أيامي.

كما أرفع أسمى عبارات المحبة والوفاء إلى **أبي الغالي**، الذي علمني أن الطريق إلى النجاح ثبنى بالصبر.

ولا يفوتني أن أعبّر عن امتناني ومحبتي **لإخوتي وأحبابي: مريم، ملاك، فاروق، صونيا، وأروريو**، الذين كانوا إلى جانبي بالمساندة والتشجيع، فكان حضورهم أجمل سند في هذه المسيرة.

وفي الأخير، أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى **الأستاذ المشرف قّادة محمد**، على توجيهاته ومرافقته القيمة.

إلى كل من مدّ لي يد العون، أو منحني كلمة طيبة، أو دعوة صادقة، أهدي هذا الشكر من أعماق القلب.

مقدّمة

# مـــقدمـــة

## مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى أله وصحبه أجمعين.

يعد الأدب العربي من أبرز مظاهر الحضارة العربية والإسلامية، إذ شكل على مر العصور مرآة عكست مختلف جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية والثقافية. وقد تنوعت فنونه وأغراضه بتنوع تجارب الإنسان واهتماماته، فكان وسيلة للتعبير عن مشاعره وأفكاره، كما أسهم في حفظ جانب مهم من التراث العربي ونقله عبر الأجيال، ومن بين الفنون التي حظيت بمكانة مميزة في الأدب العربي أدب الرحلة، الذي ارتبط بحركة التنقل والأسفار التي عرفها العرب منذ القدم، سواء لأغراض دينية أو علمية أو تجارية أو سياسية.

وقد أتاح هذا الفن للرحالة فرصة تسجيل مشاهداتهم ونقل تجاربهم، مما جعله مصدرًا مهمًا للمعرفة، يجمع بين الفائدة العلمية والمتعة الأدبية. كما أسهم في التعريف بالبلدان والشعوب والعادات والتقاليد، وسجل كثيرًا من الأحداث والوقائع التي شهدتها فترات تاريخية مختلفة، وقد ازداد الاهتمام بأدب الرحلة في التراث العربي لما يتضمنه من مادة ثرية ومتنوعة، جعلته يتجاوز مجرد وصف الأسفار والتنقلات ليصبح سجلًا يوثق جوانب متعددة من حياة الأفراد والمجتمعات.

ومن هذا المنطلق برز عدد من الرحالة الذين تركوا مؤلفات قيمة أسهمت في إثراء هذا الفن، ومن بينهم أبو راس الناصري الذي يعد من أبرز الرحالة الجزائريين الذين سجلوا تجاربهم ومشاهداتهم في مؤلفاتهم. فيعد من أبرز الشخصيات العلمية والأدبية التي كان لها حضور بارز في عصرها، إذ عرف بسعة علمه وكثرة أسفاره واتصاله بالعلماء والشيوخ. ومن أبرز مؤلفاته كتاب " فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، الذي يعد من

# مـــقدمـــة

النصوص الرحلية المهمة لما يتضمنه من معطيات متنوعة تعكس تجربة الرحالة ومشاهداته خلال رحلته.

وقد جاءت هذه الدراسة انطلاقًا من الاهتمام بأدب الرحلة بوصفه فنًا يجمع بين المعرفة والتوثيق والتعبير الأدبي، إضافة إلى الرغبة في التعرف إلى تجربة أبي راس الناصري والكشف عن الجوانب المختلفة التي تضمنها مؤلفه. كما أن هذا الموضوع يكتسي أهمية خاصة لما يوفره من مادة أدبية وفكرية وتاريخية تسهم في إبراز قيمة الرحلة ضمن التراث العربي.

وتكمن أهمية الدراسة في كونها تسلط الضوء على أحد نماذج أدب الرحلة في الجزائر، وتبرز ما يحمله من أبعاد متعددة تتجاوز مجرد تسجيل أحداث السفر والتنقل، لتشمل جوانب دينية وعلمية واجتماعية وأدبية وتاريخية، مما يجعل الرحلة مصدرًا مهمًا للباحثين في مختلف المجالات.

وانطلاقًا مما سبق، جاءت هذه الدراسة للإجابة عن الإشكالية الآتية:

كيف تجلت الرحلة الأدبية عند أبي راس الناصري من خلال مؤلفه «فتح الإله ومنته»؟ وما أبرز خصائصها الفنية والفكرية وقيمتها الأدبية والتاريخية؟

ويندرج تحت هذه الإشكالية عدد من التساؤلات الفرعية، من أهمها:

- ما المقصود بالرحلة وأدب الرحلة؟
- كيف نشأ أدب الرحلة وتطور في التراث العربي؟
- من هو أبو راس الناصري؟ وما طبيعة مؤلفه «فتح الإله ومنته»؟
- ما الدوافع التي كانت وراء رحلة أبي راس الناصري؟
- كيف تجلت مستويات السرد في الرحلة؟

- ما أبرز الموضوعات التي تناولها الرحالة في مؤلفه؟
- ما الأبعاد الفكرية التي عكستها الرحلة؟
- فيما تتمثل القيمة الأدبية والتاريخية لهذا العمل؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي لملاءمته لطبيعة الدراسة، وذلك من خلال وصف مختلف عناصر الرحلة وتحليل مضامينها، كما تم الاستعانة بالمنهج التاريخي في تتبع نشأة أدب الرحلة والتعريف بأبي راس الناصري وعصره.

ولم تخل هذه الدراسة من بعض الصعوبات، لعل أبرزها صعوبة جمع المادة العلمية المتعلقة بالموضوع، وتشتت بعض المعلومات الخاصة بالرحالة ومؤلفه، إضافة إلى صعوبة الإحاطة بجميع الجوانب التي يتضمنها هذا العمل الرحلي.

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى فصلين؛ فصل نظري موسوم بـ «الإطار المفاهيمي والتاريخي لأدب الرحلة»، تناول مفهوم الرحلة، وأدب الرحلة في التراث العربي، والتعريف بأبي راس الناصري وكتابه. أما الفصل الثاني، فقد خصص للدراسة التطبيقية، وتناول مستويات السرد في الرحلة، وموضوعاتها، إضافة إلى الأبعاد الفكرية والأدبية والقيمة الأدبية والتاريخية التي تضمنها النص.

نتقدم بالشكر إلى الأستاذ المشرف **قادة محمد** على إشرافه على هذا العمل، ونسأل الله له التوفيق والسداد.

وفي الأخير، نسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وأن نكون قد وفقنا في معالجة هذا الموضوع والإسهام في إبراز جانب من جوانب أدب الرحلة في التراث العربي.

# الفصل الأول:

## الإطار المفاهيمي والتاريخي لأدب الرحلة.

## المبحث الأول: مفهوم الرحلة

قبل لخوض في الحديث عن أدب الرحلة بوصفه جنسا أدبيا قائما بذاته. لابد من الوقوف عند مفهوم "الرحلة" في حد ذاته، إذ أن ضبط المصطلح يعد خطوة أساسية لفهم الامتدادات الدلالية التي اكتسبتها لاحقا في لسياق الأدبي، فالمفهوم في أصوله اللغوية يختلف عن تطوره الاصطلاحي. الأمر الذي يستدعي التمييز بين الدلالة المعجمية والدلالة التي تشكلت عبر الاستعمال الثقافي والأدبي.

### أولا: الرحلة لغة:

خلق الله الإنسان باحثا عن المعرفة، لا يرضى بالركود ويدفعه فضوله للاختبار البيئات المختلفة وفهم ذاته والعالم المحيط به. وإذا كان يعد حجم المادة اللغوية التي تحظى بها لفظة ما داخل المعجم مؤشرا على مكانتها الدلالية فإن مادة "رحل" قد حظيت باهتمام عند صاحب لسان لما تتميز به من شيوع في الاستعمال واتصالها بحياة العرب القائمة على التنقل والترحال، وعليه فقد جاء في لسان العرب: و "الرّحل مركب البعير والناقة. جمعه أرحل ورحال، قال طرفة:

جازت البَيد إلى أرحلنا آخر الليل، بيعفور حذر

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، سجد فركبه الحسن فأبطأ في سجوده، فلما فرغ سئل عنه فقال إن ابني ارتحلني كالراحلة فركب على ظهري، و إنه لحسن الرحلة أي الرّحل.[1] و أما في القاموس المحيط "ارتحل البعير سار و مضى، و القوم عن المكان انتقلوا"[2]

[1] ينظر: ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، مجلد 11، دار الصادر بيروت،1968م، ص274.276.

[2] ينظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2009م1430هـ، ص1080.

وأما في مقاييس اللغة فجاء " الراء و الحاء و اللام، أصل واحد يدلّ على ما مضي في السفر، يقال : رحل، يرحل، راحلة، و جمل رحيل ذو رُحلة، إذا كان قوي على الرّحلة"[1].

وأما في المعجم الوسيط فجاء رَحَلَ عن المكان رحلا ورحيلا وترحالا ورحلة: سار ومضى، ورحيل وعَلاهُ وركبه. و يقال: رُحلً فلان يمكروه و رحله بسيفه علاه به، و في الحديث " لتكفن عن شتمه أو لأرحلنك بسيفي "[2].

بناءً على ما تقدم، فإن مجامع اللغة تجمع على أن الرحلة في أصلها اللغوي تدل على الانتقال والحركة من موضع إلى آخر و هي دلالة ترتبط بالفعل الإنساني إذ لم يكن الإنسان يوما ثابتا في مكانه ، بل ظلّ عبر العصور في حركة دائمة قائمة على السعي و المغادرة و التغيّر، فالرحلة لا تعني مجرد السفر المادي، و إنما تحيل إلى تحول في الحال انتقال في التجربة، و هو ما يكشف عن عمق هذا المصطلح في بنيته الدلالية الأولى، كما أن ارتباط لفظ "الرحل بمركب البعير" يوحي بأداة الحركة و الانتقال مما يعزز المعنى وراء الرزق أو اكتشاف للآفاق. و من ثم فإن الرحلة في معناها اللغوي تؤسس لفكرة الحركة المقصودة التي تنطوي على غاية و الهدف فل الرحلة ليست مجرد انتقال جسدي من مكان إلى آخر، بل هي فعل احتكاك بالعالم ، وانفتاح على الآخر ومواجهة لاختلاف العادات و الثقافات، من هنا تحولت الرحلة من تجربة معيشة إلى مادة سردية قابلة للتدوين حيث شعر الرحالة برغبة في تسجيل مشاهداتهم و انطباعاتهم عن الأماكن التي زاروها، وما لقيه من أشخاص و أحداث، مع ما يرافق ذلك من وصف و تأمل و تعليق، وهو ما سيمهد لاحقا لظهور مفهومها الاصطلاحي و تتبع مراحل نشأتها و تطورها .

[1] ينظر: أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج1، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2011م، ص516.
[2] ينظر: نخبة من اللغويين: معجم الوسيط، ج1، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط2، 1976م، ص394.

***ثانيا***: اصطلاحا:

بعد أن استعرضت دلالة الرحلة في اللغة وما تتحمله من معان مرتبطة بالحركة والانتقال، ننتقل الآن إلى الجانب الاصطلاحي، حيث تتجاوز الرحلة مجرد السفر المادي لتصبح تجربة إنسانية متكاملة تعكس سعي الفرد وراء المعرفة والخبرة، لتفتح نافذة على الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية التي توافق أي تجربة سفر.

عرف " بطرس البستاني " بأن الرحلة: "انتقال واحد _أو جماعة_ من مكان إلى آخر لمقاصد متعددة، وأسباب متعددة".[1]

ونجد دكتور صلاح الدين الشامي ينظر إليها على أنها " إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، واسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معين. ويجاوب هذا الهدف ارادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض شكل مباشر أو غير مباشر... وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان و ترضيه، وقد تكون – في الحالتين– استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو بكل الإلحاح للحركة و التنقل"[2].

تتفق التعريفات السابقة على أن الرحلة في جوهرها تمثل حركة فعلية أو معنوية، وهذه الحركة تصحبها أهداف محددة، وقد تنجز وقد لا تنجز، إلا أن التجربة التي تكسب أثناء الرحلة تبقى ذات قيمة بحد ذاتها. فحتى في حال عدم بلوغ الهدف يحصل الإنسان على خبرات علمية وفكرية متنوعة نتيجة مخالطته للبيئة والمجتمعات والأحداث التي يمر بها. وهو ما يعزز نموه الفكري والاجتماعي، ومن هذا المنطلق يظهر التقارب الواضح بين الرحلة

[1] ينظر: دائرة المعارف، بطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت،1864م، ص 564.

[2] ينظر: عالم الفكر، د.صلاح الدين الشامي، عدد يناير 1983، الكويت، ص13.

في معناها اللغوي، حيث تدل على الانتقال والحركة، وبين مفهومها الاصطلاحي في أدب الرحلة، إذ يشترك كلاهما في عنصر الحركة كجوهر أساسي مع التركيز على أن هذه الحركة لا تقتصر على السفر المادي فحسب، بل تشمل التحولات الفكرية والتجريبية التي يمر بها الإنسان أثناء مسيره.

وضم الرحالة "رجال علم الدين، وكان بينهم أيضا طوافون من هواة السّفر والتّرحال، وآخرون استهوتهم المغامرة ودفعتهم المخاطرة إلى كشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس"[1].

وانطلاقا من هذا التصور، عرف النقاد أدب الرحلة بحيث أنه "أدب وصفي، ذو طابع إخباري وتسجيلي يهتم بجمع أخبار البلاد والعباد، وتسجيل المشاهد الغريبة والطريفة، وهو يتسم بالسمات تاريخية وجغرافية، لاهتمامه بحياة النّاس وتقاليدهم، وأنماط عيشتهم، كما يتميز بمضمونه الفكري والاجتماعي غالبا عما سواه"[2].

وتجدر الإشارة إلى أن تناولي لأدب الرحلة في هذا السياق لم يأت اعتباطا، بل لكونه الامتداد الطبيعي لمفهوم الرحلة في بعدها الاصطلاحي، إذ لا تقتصر الرحلة على مجرد الانتقال وإنما تتجلى فيما يدونه الرحالة من تجارب وانطباعات، وهو ما يمنحها بعدا أدبيا وفكريا يتجاوز معناها اللغوي البسيط.

لقد أضحت الرحلة في العصر الحديث فنا أدبيا بارزا يحظى بانتشار واسع في مختلف أنحاء العالم، ولم تعد تقتصر على مجرد وصف التنقل أو تسجيل المشاهدات، بل أصبحت مجالا غنيا تتقاطع فيه معارف متعددة وتجارب إنسانية متنوعة، إذ تتدرج ضمنها أبعاد

[1] ينظر: حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، ص11.

[2] ينظر: عمر بن قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995م، ص11.

ثقافية واجتماعية وفكرية، وهو ما جعلها محل اهتمام الباحثين والدارسين، ودفع بعضهم إلى القول أن: "فن الرحلة لون أدبي ذو طابع قصصي، فيه عموما فائدة للمؤرّخ مثل الباحث في الأدب، والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم، كما هو ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة الظروف والأوضاع، وفي اكتشاف المعالم وأقطار ووصفها، والحكم عليها وعلى المجتمع فيها حكاماً ومواطنين، فهو وصف في النهاية لكل من انطبع من ذلك وسواه في ذهن الرّحالة، عبر مسار رحلته وفي احتكاكه بالمحيط، يتآزر في ذلك الواقع والخيال، وأسلوب القص والحقائق العلمية التاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية وغيرها"[1].

[1] ينظر: عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ص97.

## ***المبحث الثاني:*** أدب الرحلة في التراث العربي

بعد دراسة الرحلة في مفهومها اللغوي والاصطلاحي. أتجه الآن إلى تسليط الضوء على أحد الفنون النثرية التي احتلت مكانة متميزة في التراث العربي، والمتمثل في أدب الرحلة، وهذا الأخير بما يجمعه من خصائص سردية ووصفية يعكس تجربة الإنسان في تنقله عبر الأمكنة واختلاف البيئات، ولم يكن هذا اللون من الأدب مجرد نقل للوقائع أو تسجيل للمشاهدات، بل تجاوز ذلك ليصبح وسيلة للتعبير عن الرؤية الفكرية والثقافية للرحالة، وما يحمله من انطباعات وملاحظات حول المجتمعات التي يمر بها.

وقد ارتبط أدب الرحلة بطبيعة الحياة العربية القائمة على التنقل والترحال. سواء لأغراض معيشية أو علمية أو دينية، وهو ما أسهم في تنوع هذا الفن وتعدد مجالاته. ومن ثم، فإن دراسة أدب الرحلة تقتضي الوقوف عند نشأته وتطوره، وكذا التعرف على أنواعه المختلفة مع الإشارة إلى بعض النماذج التي برزت في التراث العربي عامةً، وفي الأدب الجزائري خاصةً.

### ***أولا:*** نشأة أدب الرحلة وتطوره:

عرفت البشرية فعل الرحلة منذ بداياتها الأولى، حيث ارتبطت حركة الإنسان على وجه الأرض بحاجته الدائمة إلى البحث والتنقل والإكتشاف، وقد ترجع بعض الدراسات جذور هذا الفعل إلى البدايات الأولى لوجود الإنسان، منذ عهد سيدنا آدم عليه السلام، بإعتبار أن الإنتقال من مكان إلى آخر كان ضرورة معيشية وإنسانية فرضتها طبيعة الحياة وتطورها مع مرور الزمن. تطورت هذه الحركة البسيطة إلى أشكال متعددة من الرحلات، تباينت أهدافها ودوافعها بين الديني والعلمي والاقتصادي والاجتماعي.

**وقد ولد هذا الفن**: من خلال قيام الرحالة بتدوين تجاربهم وقصص أسفارهم وانطباعاتهم حول ما شاهدوه خلال تنقلاتهم، إذ كان الترحال والتنقل بين الأمكنة سببا في تعرفهم على

مختلف البلدان والحضارات وقد جعل هذا الإمتداد التاريخي من الرحلة أحد أقدم أشكال السرد الإنساني لما تحمله من تجارب متنوعة ومعارف متعددة تتفرع إلى مجالات مختلفة، كما حظى هذا الأدب بإهتمام عدد كبير من أدباء و الباحثين لما يتضمنه من عناصر استكشاف ومغامرة، ولإرتباطه الوثيق بتاريخ الإنسانية منذ أقدم العصور حيث "تواترت الأخبار عن رحل الفردية و الجماعية طلبا للرزق والتجارة، والإطلاع والمعرفة فقام بعض الشعراء في الجاهلية بالرحلة إلى الحيرة ودمشق وبلاد الروم، وذكروا ما جرى معهم في هذه الرّحل"[1].و تتضح من ذلك أن الرحلة ارتبطت في كثير من الأحيان بظروف وأسباب معيشية معينة، دفعت الإنسان إلى التنقل سعيا وراء تحسين وضعه واكتساب خبرات جديدة.

" كما كان لقريش رحلتان احداهما في الشتاء والأخرى في الصيف، وجاء ذكرهما في القرآن الكريم"[2].

لقوله تعالى " لإيلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء و الصيف "[3].

إذ كانت **قريش** تقوم برحلتين منتظمتين خلال السنة، رحلة في فصل الشتاء نحو اليمن، وأخرى في فصل الصيف نحو بلاد الشام، وقد ارتبطت هاتان الرحلتان بنشاط تجاري يقوم على تبادل السلع والمنتجات بين مختلف البلدان، وأسهم هذا النشاط في تنشيط الحركة الاقتصادية داخل مجتمع قريش، كما أتاح لهم فرصا للاحتكاك ببيئات متنوعة والتعرف على أنماط عيش وثقافات مختلفة، مما ساعد على توسيع معارفهم واكتساب خبرات متعددة، وقد تميزت هذه الحلات بطابع من التنظيم والاستمرارية، وهو ما يعكس وعيا مبكرا لدى قريش بأهمية التجارة و الحركة في تحقيق المصالح وتعزيز مكانتها بين القبائل.

[1] ينظر: علي إبراهيم كردي، أدب الرحل في المغرب والأندلس، مطابع الهيئة العامة الثورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2013م، ص09.
[2] ينظر: علي إبراهيم كردي، أدب الرحب في المغرب والأندلس، المصدر نفسه، ص09.
[3] سورة قريش، الآيتين 1،2.

وبهذا التحول الكبير الذي عرفه المجتمع العربي، والذي ساهمت فيه عدة عوامل مثل ازدهار التجارة ومكانة الحج كرحلة دينية واجتماعية تجمع مختلف القبائل العربية، جاء **عصر صدر الإسلام** حاملا معه منظومة فكرية وروحية مغايرة، ليعزز هذا الجانب من التنقل والسفر حيث ارتبطت الرحلة فيهذه المرحلة بالدين وطلب العلم والجهاد، وهو ما ساهم لاحقا في تطور ما يعرف بأدب الرحلة "صدع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بدعوته، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية، ثم تولى الخلفاء الرّاشدون أمور المسلمين من بعده قاموا بتجييش الجيوش للفتوح الإسلامية في المشرق والمغرب، فانضوت تحت لواء الخلافة الإسلامية دول كثيرة ما أدى إلى اتّساع رقعة الدولة. وكان لزاماً على القائمين على الأمور أن يعرفوا مسالك هذه البلاد وطرقها. فقاموا بفتح الطرق بين المدن المختلفة، و أنشؤوا نظام البريد الذي أسهم في تشجيع الرحلة بين أجزاء هذه الدولة[1].

وهكذا دخلت الدولة الإسلامية مرحلة جديدة توسعت وبدأ التنظيم يظهر أكثر مما سهل التنقل بين المناطق وساعد على تقوية الإتصال بينها، وهذا ما أثر لاحقا في تطور الرحلة.
أما بدايات الرّحل فقد أخبرنا بها بعض المؤرخين، وتعود أولى هذه البدايات إلى **العصر العباسي** كرحلة سلام الترجمان سنة 227هـ\842م، ورحلة سليمان التاجر 237هـ\851م، ورحلة ابن وهب القرشي سنة 257هـ\871م، ورحلة ابن موسى المنجم 277هـ\850م، ورحلة اليعقوبي سنة 296هـ\908م[2].

إلا أن هؤلاء لم يدونوا رحلهم بل وصلت إلينا أخبارها عن طريق الرواة والمؤرخين الذين أشاروا إليها وأوردوا مختارات منها في مصنفاتهم. أما الرّحل المدونة فأقدم ما عُرف منها، بحسب ما تتيحه المراجع تتمثل في رحلة ابن فضلان التي قام بها سنة 309هـ\921م إلى بلاد البلغار بتكليف من الخليفة العباسي المقتدر بالله ليقوم بتفقيه الناس في تلك البلاد

[1] ينظر: علي إبراهيم الكردي، أدب الرحل في المغرب والأندلس، المصدر السابق، ص 09، 10.
[2] ينظر: علي إبراهيم الكردي، أدب الرحل في المغرب والأندلس، المصدر نفسه، ص 10.

بتعاليم الدين الإسلامي، فكتب وصفا لمشاهداته في تلك الرّحلة، وكانت أوّل رحلة مكتوبة نقف عليها، ومنذ ذلك الحين بدأت الرّحل تأخذ شكلها المستقل إلى أن أصبحت فنا له قواعده وأسسه[1].

فما نلاحظه في العصر العباسي برز أدب الرحلة بشكل أوضح وأكثر تطورا مقارنة مما سبق، حيث لم تعد الرحلة مقتصرة عللا الأغراض التجارية فحسب، بل أصبحت مرتبكة أيضا بطلب العلم و السعي إلى المعرفة و الإطلاع على مختلف الأقاليم وقد تميزت هذه المرحلة بأن كثيرا من الرحلات لم تصلنا في شكل مدونات مكتوبة من طرف الرحالة أنفسهم، وإنما نقلت إلينا أخبارها عن طريق الرواة والمؤرخين الذين دّونوا ما سمعوه أو جمعوه من روايات مختلفة، وهذا ما يجعل المادة الرحلية في هذه الفترة غير مكتملة من حيث التدوين الذاتي، رغم أنها تمثل مرحلة أساسية في نشأة و تطور أدب الرحلة و بداية تشكله كفن نثري قائم بذاته.

شهد فن الرحلة في **الأندلس والمغرب** خلال هذه المرحلة ازدهارا كبيرا وتطورا ملحوظا جعله يحتل مكانة بارزة ضمن الفنون الأدبية في التراث العربي، فقد ساهمت الظروف الحضارية والعلمية التي ميزت هذه المناطق في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية مما شجع العلماء والرحالة على التنقل بين المدن والأقاليم المختلفة طلبا للعلم والمعرفة، وأحيانا لغرض وصف ما يلاحظونه من عادات وأحوال المجتمعات، كما أدى هذا النشاط الرحلي إلى بروز عدد معتبر من المؤلفات التي تنوعت بين كتب الرحلات والسير والتراجم، حيث لم يقتصر على السرد فقط، بل كانت تعكس تجارب شخصية وانطباعات ذاتية للرحالة، وبهذا الشكل أصبح أدب الرحلة أكثر نضجا وثراءً، وارتبط بشكل وثيق بالحياة العلمية والثقافية في تلك الفترة، مما جعله جزءا مهما من تاريخ الأدب العربي و تطوره.

[1] ينظر: علي إبراهيم الكردي، أدب الرحل في المغرب والأندلس المصدر السابق، ص10.

أما الأندلس فقد أولع أهلها بالرحلة منذ قديم ونقف في كتب التراجم والسير والتاريخ على أسماء أعداد كثيرة منهم. هذا في الأندلس، وكان في المغرب أكثر منه ذلك أن اهتمام المغاربة بالرحلة يتجاوز اهتمام الأندلسيين [1].

وإذا ما انتقلنا إلى **القرن السادس الهجري**، نصادف اثنين من الرّحالين الأندلسيين قاما بتدوين مشاهداتهما في كتابين مستقلين:

**الأول** – هو أبو حامد الغرناطي ت{565هـ\1170م} الذي رحل إلى المشرق وسمع من علمائه ودون رحلته هذه بعنوان "تحفة الألباب ونخبة الأعجاب"

**الثاني** – هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانّي ت{614هـ\1217م} في رحلته لتأدية فريضة الحج عن طريق البحر المسماة "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" وكانت هذه الرحلة على غاية من الأهمية لأنها الرحلة المدونة الأولى التي وصفت صاحبها طريق الحج وصفا مفصلا، وصوّر بها عادات البلاد التي مرّ بها وتقاليدها[2].

ويمكن القول إن هذه الرحلة تمثل انتقالا مهما في تطور أدب الرحلة حيث لم يعد الرحالة يكتفون بنقل أخبار رحلاتهم شفويا كما كان عليه الحال في بعض المراحل السابقة، وخاصة في العصر العباسي كما شاهدنا مسبقا. ومع تطور هذا الفن في القرن السادس الهجري خاصة مع رحلات أبي حامد الغرناطي وابن جُبير. أصبح الرحالة يسجلونا مشاهداتهم وتجاربهم بشكل مكتوب ومنظم، وتحولت الرحلة إلى نصوص مدونة تصف البلدان والطرق والعادات بدقة. وهذا ما سنراه في المغرب، حيث سيأخذ أدب الرحلة بعدا آخر من التطور والإنتشار.

[1] ينظر: علي إبراهيم الكردي، أدب الرحل في المغرب والأندلس، المصدر السابق، ص10.

[2] ينظر: علي إبراهيم الكردي، أدب الرّحل في المغرب والأندلس، المصدر نفسه، ص11، 12.

أما إذا انتقلنا إلى **القرن السابع الهجري** فنقف على أولى الرّحل المغربية المدونة التي وصلت إلينا وهي رحلة ابن رُشيد ت{721هـ\1321م} المسماة "ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة" وهي أكبر الرّحل المغربية من حيث الحجم إذ تقع في سبعة أجزاء، صرف مؤلفها جلّ اهتمامه إلى الحالة العلمية التي كانت تتصف بها البلاد التي مر بها[1]. وهذا يعكس الأهمية الكبيرة التي حظي بها أدب الرحلة في توثيق الحياة العلمية والفكرية في تلك لفترة، مما يجعله مصدرًا أساسيًا يعتمد عليه الباحثون في دراسة تاريخ الحضارة الإسلامية.

وقد أسهمت كتابات الرحالة في إثراء لأدب الرحلة، حيث **برز عدد من الأعلام** الذين خلّدوا تجاربهم في مؤلفات متميزة، نجد كالعبدري الذي قدّم وصفا دقيقا لرحلته، وكذا الظاهري الذي اهتم بتسجيل مشاهداته وانطباعاته، وابن خلدون بمقدمته الشهيرة حيث أشار إلى أثر التنقل والاحتكاك بالمجتمعات في توسيع مدارك الإنسان وفهمه للعمران البشري، وابن بطوطة حيث نقف عند هذا الرحالة الذي يعد من أبرز ممثلي أدب الرحلة، حيث مثلت تجربته نموذجا متقدما في هذا الفن لما تحمله من قيمة علمية وتجربة ثرية، إلى جانب بعض الرحالة في العصور اللاحقة. وتميزت هذه الكتابات بطابع أدبي واضح، إذ جمعت بين دقة الوصف وجمالية السرد، مما جعلها تمثل مرحلة متقدمة في تطور هذا الفن عند العرب.

وقد شهد **العصر الوسيط** مرحلة تميزت بتغيير في مسار أدب الرحلة مقارنة بالمراحل السابقة، حيث لم يعد هذا الفن يحظى بالإمتداد الواسع الذي عرفه في العصور الأولى، "لما كانت الرحلة العربية وآدابها إحدى مرايا الحضارة العربية، فقد تقلصت نسبيا هي الأخرى خلال **القرنين التاسع والعاشر الهجريين(15،16م)** وتوقفت تقريبا خلال القرنين الحادي

[1] ينظر: علي إبراهيم كردي، أدب الرحب في المغرب والأندلس، المصدر السابق، ص12.

عشر والثاني عشر هجريين (17،18م)، ولا نكاد نذكر إلا رحلتي النابلسي والطرابلسي والعياشي، ونحسب أن لذلك أسبابا عديدة، منها:

1_ المشكلات السياسية والاقتصادية التي لحقت وعمت العالم العربي.

2_ النكوص الثقافي والحضاري والتدهور الإنساني بشكل عام.

3_ زوال دولة الإسلام من اسبانيا.

4_ سقوط كل دولة تحت عبء مشكلاتها الداخلية والنزاع على السلطة"[1].

غير أنه ظل حاضرا في بعض الكتابات التي واصلت توثيق مشاهدات الرحالة وتجاربهم في التنقل بين الأقاليم، كما استمر هذا اللون الأدبي في الظهور من خلال مؤلفات فردية اهتمت بوصف البلدان ورصد المعالم الحضارية والاجتماعية، مع المحافظة على طابعه السردي القائم على نقل التجربة والمعاينة المباشرة. وقد أسهم هذا الإمتداد في إبقاء أدب الرحلة جزءا من الإنتاج العربي ولو بصيغ متفاوتة من حيث الحجم والانتشار، مما مهد لاستمراره وتطوره في المراحل اللاحقة، حيث "أن الرحلات العربية سرعان ما عادت إلى البزوغ والإزهار من جديد في ثوب مختلف مع السنوات الأولى من **القرن التاسع عشر**، وتحديدا بعد الحملة الفرنسية على مصر، وقد بدأها محمد عمر التونسي سنة 1903م برحلة إلى بلاد العرب والسودان وضمنها كتابه **'تشحيذ الأذهان'**، وتلاه الطهطاوي الذي عبر طريقا فسيحا للرحلة بكتابه **'تلخيص الإبريز'**، فسارت على دربه كوكبة كبيرة ومتألقة من الرحالة، يتقدمهم محمد عياد الطنطاوي صاحب كتاب **'تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا'**[2].

نلاحظ من خلال هذا المسار الطويل الذي مرّ به أدب الرحلة، أنه قد عرف تطوراً تدريجيا عبر مختلف العصور، حيث ارتبط هذا الفن في بداياته بالبيئة العربية التقليدية وما

[1] ينظر: قنديل فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002م، ص80،81.
[2] ينظر: قنديل فؤاد، المصدر نفسه، ص81.

كان يفرضه الواقع من تنقل وترحال لأغراض دينية أو علمية أو معيشية، في حين شهد في العصر الحديث تحولات واضحة من حيث الأهداف والأساليب، متأثرا بالحركة الفكرية والثقافية التي عرفها العالم العربي، وبخاصة النهضة العربية والاحتكاك بالحضارة الغربية، وقد ساهم هذا التحول في إضفاء طابع جديد على أدب الرحلة، جعله أكثر انفتاحا على التحليل والتأمل بدل الاكتفاء بالسرد والوصف، مما يعكس تطوره المستمر عبر مختلف المراحل التاريخية.

## ***ثانيا:*** أنواع أدب الرحلات في التراث العربي:

تعد الرحلة سلوكا طبيعيا لدى الإنسان، ارتبط بوجوده منذ القدم، حيث عرفها منذ أن استقر على هذه الأرض، فكانت وسيلة لتحقيق حاجاته الأساسية في التنقل والبحث عن الرزق والمعرفة. ومع تطور الحياة الإنسانية لم تعد الرحلة مجرد حركة في المكان، بل أصبحت تجربة غنية تحمل أبعاداً ثقافية وفكرية وإنسانية متعددة، ومن هذا المنطلق، تنوعت الرحلات في الأدب العربي بتنوع الدوافع والأهداف التي تقف وراءها، مما أفرز أشكالا متعددة لهذا الفن النثري، تختلف باختلاف غايات الرحالة وظروف رحلاتهم.

لقد اختلفوا الباحثين في تصنيف الرحلات فنجد " أغرب هذه التصنيفات _ تصنيف د/ محمد الفاسي في مقدمة تحقيقه لكتاب 'الإكسبير في فكاك الأسير'، إذ يقسم الرحلات إلى خمسة عشر نوعا هي: (الرحلات الحجازية، الرحلات السياحية، الرحلات الرسمية، الرحلات الدراسية، الرحلات الأثرية، الرحلات الاستكشافية، الرحلات الزيارية، الرحلات السياسية، الرحلات العلمية، الرحلات المقامية، الرحلات البلدانية، الرحلات الخيالية، الرحلات الفهرسية، الرحلات العامة، الرحلات السفارية) وواضح الخلط الشديد في هذا التصنيف"[1].

[1] ينظر: د. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، جامعات المصرية (مكتبة الوفاء)، القاهرة، ط1، 1995م، ص32.

ونجد أيضا د/ صلاح الدين الشامي في كتابيه: الرحلة: 'عين الجغرافيا المبصرة' و 'الإسلام والفكر الجغرافي'، إذ يقسم الرحلة إلى ستة أنواع، منها ثلاثة كانت قبل الإسلام هي:

1-رحلة الحج. 2-رحلة الحرب. 3-رحلة السفارة.

وثلاثة أخرى أضافها الإسلام هي:

4-رحلة الحج. 5-رحلة طلب العلم 6-رحلة التجوال والطواف.[1]

ويمكن إدراج الكثير من هذه الأنواع تحت عنوان واحد شامل كالرحلات الرسمية التي تضم السياسية والسفارية، حيث أن الدكتور ناصر الموافي صنفها إلى أربع رحلات عربية تتمثل في " الرحلة الرسمية، رحلة التجارة والعجائب، الرحلة العلمية، الرحلة الدينية"[2]. وهذه هي الرحلات الأكثر شيوعا وسأحاول التطرق إليها بشيء من التفصيل ألا وهي:

***1-الرحلة الدينية:*** تُعد الرحلة الدينية وتسمى كذلك ب(الحجازية) من أقدم الرحلات في التراث العربي، وهي رحلات يطغى عليها البعد الروحي والايماني، إذ تنبع من حنين المسلم وشوقه لزيارة بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، والتقرب من الله تعالى في الأماكن المقدسة، وقد عُرفت هذه الرحلات حضوراً قويا لدى الرحَالة المغاربة خاصة، الذين كان لرحلاتهم إلى المشرق أثر بارز في تدوين المشاهدات ونقل التجارب، سواء من خلال وصف الطرق والمنازل أو تسجيل ما يتعلق بالمجتمعات التي مروا بها. حيث "تحتل الرحلة الحجازية إلى الأماكن المقدسة المرتبة الأولى بين الرحل، لأن هذه الأماكن تتمتع بمكانة عالية عند المسلمين في كل الأصقاع،

[1] ينظر: د. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، المصدر السابق، ص32،33.

[2] ينظر: د. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، المصدر نفسه، ص34.

فالحج من أهم البواعث للرحلة لما كان يتمتع به المجتمع المغربي المسلم من تمسك بالقيم الروحية...ولم يكن الإنسان المغربي –شأنه شأن المسلمين جميعهم– يقنع برحلة واحدة إلى الحج، ولكنه ما إن يعود إلى بلاده ويستقر بين أهله حتى يعاوده الشوق والحنين مرة أخرى أشد وأقوى، فيشدُّ الرِّحال من جديد إذا تمكن من ذلك"[1]. ومن أبرز ما يميز هذا النوع من الرحلات أنه جمع بين الهدف الديني والتوثيق المعرفي، مما جعله يشكل رافداً مهما في تطور أدب الرحلة في التراث العربي.

***2-الرحلة العلمية:*** هي الرحلات التي يقوم بها الإنسان بقصد طلب العلم والمعرفة، من خلال التنقل بين البلدان واللقاء بالعلماء والأخذ عنهم، قصد الاستفادة من علومهم وخبراتهم، "فهي معلم ممتاز على المستويين: النظري والعملي، كما أنها وسيلة للإيمان، أو تثبيته وتأكيده، وذلك من خلال ما يراه الرحال من عجائب وغرائب وبديع صنع"[2]، وقد انتشرت هذه الرحلات في التراث العربي الإسلامي انتشارا واسعا حيث أن "هذه الرحلة تتعلق بسبب أو بآخر بالناحية الدينية، لأن الإسلام حضّ على طلب العلم منذ القديم بالرحلة فقطعوا الصحارى والقفار بحثا عن فائدة، أو سماعا لحديث، أو رجاء لقاء عالم، حتى أصبحت الرحلة فيما بعد شرطا لازما للعالم عموما، ولعالم الحديث خصوصا"[3]، وقد أشار القرآن الكريم إلى مكانة طلب العلم في قوله تعالى "يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات"[4]. وبذلك، شكلت الرحلة العلمية ركيزة أساسية في مسار التحصيل النعرفي، وأسهمت في ربط العلماء بعضهم ببعض، وتيسير التواصل بينهم مما أتاح تبادل المعارف والخبرات في مختلف المجالات، كما كان لها دور بارو في تنشيط الحركة الفكرية، الأمر الذي جعلها مظهرا واضحا من مظاهر الاهتمام بالعلم في الحضارة العربية الإسلامية.

---

[1] ينظر: علي إبراهيم كردي، أدب الرِّحل في المغرب والأندلس، المصدر السابق ص12،13.

[2] ينظر: ناصر عيد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع هجري)، المصدر السابق، ص28.

[3] ينظر: غلي إبراهيم كردي، أدب الرّحل في المغرب والأندلس، المصدر نفسه، ص13.

[4] سورة المجادلة، الآية 11.

***3-الرحلة التجارية:*** هي الرحلات التي يقوم بها الرحالة قصد ممارسة التجارة، وبيع السلع وشرائها، أو تبادل المنتجات بين مختلف البلدان والأقاليم، وقد عُرفت هذه الرحلات منذ القدم، حيث "تشير كتب المؤرخين إلى أن العرب منذ ما قبل الإسلام كانت لهم تجارة نشطة، سافروا لها خارج أوطانهم برا وبحرا، وأغلب الظن أنهم عرفوا الملاحة والإبحار من قديم، وقد اشتهروا بالتجارة مع شعوب أفريقية في شمالها وشرقها وأيضا في شرق الجزيرة حتى الهند وما وراءها"[1]،فمن أشهر الرحلات في الثقافة العربية رحلتي قريش كما ذكرتها سابقا، مما يدل على قدم هذا النشاط وأهميته الاقتصادية والاجتماعية. ولقد استمرت في التطور خلال العصر العباسي، حيث ازدهرت الحركة التجارية نتيجة اتساع الدولة الإسلامية وتعدد الطرق بين المشرق والمغرب، مما جعل الرحالة أكثر نشاطا وتنظيما، وقد برز عدد من الرحالة مثل ياقوت الحموي والإدريسي ...وغيرهم من الذين اهتموا بوصف البلدان والأسواق وطرق التجارة. مما أسهم في إثراء أدب الرحلة وبذلك لم تكن الرحلة مجرد وسيلة للربح، بل كانت أيضا مجالا لتبادل الثقافات والمعارف بين الشعوب.

***4-الرحلة الرسمية:*** يضم هذا النوع كلا من الرحلات التكليفية، والإدارية، والسفارية، وهي الرحلات التي يقوم بها السفراء أو المبعوثون ممثلين لدولهم، من أجل أداء مهام رسمية، كإيصال الرسائل، وعقد الاتفاقيات، وتوثيق العلاقات بين الدول، وقد عرفت هذه الرحل مند القدم وشهدت حضورا واضحا في العالم الإسلامي، "فهي رسالة يتنافس في أدائها من يكلّفون بها، مهما كلّفهم الأمر من تضحيات، إذ تقترن في نفوسهم برفعة وعلوّ شأن الدولة الإسلامية، فالسفير عنوان دولته، وكانت السفارات لا تنقطع بين الدول العربية وما جوارها من الدول غير العربية، بقصد الصّلح وفك الأسرى، أو لتصفية الأجواء السياسية، وقد تكون

[1] ينظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، المصدر السابق، ص25.

وليدة علاقات دبلوماسية أو تقاليد لربط العلاقات السياسية، وليس هذا وحسب، بل لعبت دوراً ملحوظاً في توسيع نطاق المعلومات الجغرافية"[1].

ومن أشهر نماذج الرحلات السفارية رحلة ابن فضلان، الذي أرسل مبعوثا من قبل الخليفة العباسي مقتدر بالله سنة 921م إلى بلاد الصقالبة، قصد تبليغ الرسالة الرسمية وتوطيد العلاقات معهم، وتعليمهم أمور الدين الإسلامي. وقد دون ابن فضلان تفاصيل رحلته من خلال كتابه "رسالة ابن فضلان"، فوصف الطرق التي سلكها، وأحوال الشعوب التي مر بها، وعاداتهم وتقاليدهم، مما جعل رحلته من أبرز الرحلات السفارية في التراث العربي الإسلامي، لما تحمله من قيمة تاريخية وجغرافية وحضارية.

وبهذا أختم الحديث عن الرحلة السفارية بوصفها أحد الأنواع المهمة التي جمعت بين أداء المهام الرسمية وتحقيق الفائدة المعرفية، ومن خلال ما سبق، يتضح أن الرحلات قد تعددت بتعدد الأهداف والدوافع، فشملت الرحلات الدينية والعلمية والتجارية والسفارية وغيرها، وكان لكل نوع منها أثره في حياة الإنسان وفي تطور المجتمعات، كما أسهم هذا التنوع في إثراء أدب الرحلة، وجعله مرآة صادقة تعكس مظاهر الحياة الإنسانية والحضارية عبر مختلف العصور.

[1] ينظر: نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2008، ص40.

## ***المبحث الثالث:*** التعريف بالرّحالة:

بعد التطرق في المباحث السابقة إلى مفهوم أدب الرحلة، وبيان نشأته وتطوره، مع الوقوف عند أبرز أنواعه وأغراضه المختلفة، يصبح من الضروري الانتقال إلى الجانب المتصل بصاحب الرحلة موضوع الدراسة، باعتباره العنصر الأساس في بناء هذا الفن اللون الأدبي. ذلك أن قيمة الرحلة لا تنفصل عن شخصية الرحالة، وما يمتلكه من ثقافة وتجربة وقدرة على الملاحظة والوصف والتعبير. ومن هذا المنطلق، يجدر التعريف بالرحالة أبو راس الناصري، وإبراز مكانته العلمية والأدبية، مع الإشارة إلى أهم شيوخه ومؤلفاته، ثم التعريف بكتابه فتح الإله ومنته الذي يعد من النماذج البارزة في أدب الرحلة الجزائري، لما يتضمنه من مادة علمية وأدبية وتاريخية ذات قيمة معتبرة.

### ***أولا:*** ترجمة أبو راس الناصري:

***1-نسبه ومولده:*** هو أحد أعلام الجزائر في القرن الثامن عشر، ويرجع نسبه إلى محمد أبو راس، بن أحمد، بن عبد القادر، بن محمد، بن الناصر، بن علي، بن عبد العظيم، بن معروف، بن عبد الله، بن عبد الجليل، الراشدي، وهذا حسب سيرته فتح الإله ومنته، ولد سنة 1150هـ-1737م، بقلعة بني راشد، قرب مدينة معسكر الواقعة غرب الجزائر، بين جبل كرسوط وهونت، وكان له أخوان هما عبد القادر و ابن عمر، و أخت تدعى حليمة، وقد قال أبو راس عن مولده "ولما ولدت بالموضع المار حملتني أمي ووالدي إلى الشيخ الصالح، الولي _ الذي كاد أن يكون كالجيلي_ شيخ بعض شيوخي: علي بن موسى اللبوخي، أحد صلحاء أرض اليعقوبية، فبارك علي وأخبر بغيب خوارق وعادات تكون لي مودات: من علم، وعمل وصلاح، وغنى، وحفظ، وإصلاح وشيخ طلبة ولفيف، ودرس، وخطابة، وقضاء، وتصنيف"[1]، فنرى أنه عاش في بيئة دينية وعلمية منذ نعومة أظافره،

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص19.

فكان لها أثر كبير في تكوين شخصيته العلمية والفكرية، حيث أنه نشأ في أسرة اشتهرت بالتقوى وحب العلم، مما ساعده على التوجه مبكرا نحو طلب المعرفة والاتصال بأهل العلم، و "قد كان رحمة الله ورضى عنه إماما في المعقول والمنقول، وإليه يرجع في الفروع والأصول"[1].

***2-مسيرته العلمية وشيوخه:*** في بداياته، تلقى أبو راس الناصري مبادئ العلم على يد والده، الذي كان أول من أشرف على تعليمه وتوجيهه إلى طريق المعرفة، حيث أنه أخذ عنه مبادئ القراءة والكتابة، كما حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة تحت إشراف والده، فشكل ذلك الأساس الأول لتكوينه العلمي. وقد قرّ بذلك في كتابه "فتح الإله ومنته"، فيقول: "أقول: أول شيوخي والدي الشيخ أحمد، قرأت عليه {تلك الرسل فضلنا...}، وأنا صغير جدا. وأول بدئي من سورة {إذا سماء انفطرت}. ولم أقرأ {أ. ب. ت. ث} إلخ وتعلق في حفظي ما تحتها من غير تعليم/ ولم يعلم لي أحد الحروف بنقشها، ولم أتبعها أبدا، بل بدأت من السورة المذكورة أكتب بيدي"[2].

ولم تكن بداياته خالية من الصعوبات، إذ عايش ظروفا معيشية صعبة متواضعة وما يرافقها من مشقة وضيق، غير أن تلك الأحوال لم تصرفه عن طلب العلم، بل زادته عزيمة واصرارا على مواصلة التحصيل، وبعد أن استوفى مبادئ التعليم الأولى، أقبل على مجالس العلماء وحلقات الدرس، ملازما أهل العلم، حريصا على الاستفادة من معارفهم وخبراتهم، وقد عُرف بشدة رغبته في التعلم، فتنوعت معارفه واتسعت مداركه، ونهل من علوم الشريعة واللغة وغيرها من العلوم السائدة في عصره، ويقول أبو القاسم سعد الله في هذا الصدد: "عاش أبو راس (محمد ابن أحمد الناصر) حياة متقلبة، ولكنها حياة غنية بالتجارب...على أن ما يميز حياة أبي راس هو الفقر الدنيوي والغنى، لقد ذاق مرارة الجوع و ألم اليتم، ومارس

[1] ينظر: أبي القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1909، ص332.
[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص42.

الشحاذة ومشى بين الناس أكثر من عشر سنوات حافي القدمين عاري البدن وغسل ثياب غيره وفلا لهما القمل وسكن في خيمة الشعب، فذاق شظف العيش والجفاف العقلي، ثم سكن بعض الحواضر، مثل معسكر فشق طريقه وسط مؤامرات علماء ضعاف النفوس يتقاتلون على الفتات وصادف عهد الباي محمد الكبير الذي انتعشت فيه الحياة العلمية قليلا كما حماه وقربه الشيخ عبد القادر المشرفي الذي اكتشف فيه تلميذا ذكيا له حافظة نادرة وتعطش للعلم"[1].

لم يقتصر أبو راس في طلبه للعلم على شيخ واحد فقط، بل تتلمذ على أيدي عدد من العلماء والمشايخ، حيث أتقن القرآن على شيخه الشيخ منصور الضرير صاحب القراءة المتقنة، والأحكام الموقنة، كما وصفه أبو راس نفسه، ولم يقتصر تكوينه العلمي على والده وهذا الشيخ المذكور فقط، بل أخذ العلم عن عدد من المشايخ، وكان يعتز بكثرتهم، معتبرا ذلك من صفات العلماء الأجلاء وميزة من ميزات أهل العلم، وبفضل هذا الاجتهاد المتواصل، وما تحلى به من صبر ومثابرة، تمكن من بلوغ منزلة علمية مرموقة، فأصبح من أبرز علماء عصره، فاشتهر بالتدريس والتأليف وكثرة الإنتاج العلمي.

ومن كبار شيوخه نذكر بعضهم:

_ الشيخ عبد القادر المشرفي.

_ محمد ابن مولاي علي بن سحنون "قاضي أم معسكر".

_ الشيخ علي بن الشنين.

وعند انتقاله إلى "مازونة" التابعة إلى ولاية غليزان حاليا، وأقبل يتعلم على كبار شيوخها، والذين عرّفهم بشيوخ "أبي علّوفة" وهم أربعة:

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص5.

_ الشيخ محمد بن لبنة.

_ الشيخ مصطفى بن هنى.

_ اشيخ محمد بن إبراهيم.

_ الشيخ مصطفى ابن يونس.

وقد أخذ العلم من غير شيوخ بلده، فكان له شيوخ من الحواضر الإسلامية التي اشتهرت بالعلم آنذاك، من بينهم:

_ الشيخ أحمد بن عبد الله السوسي "التونسي دارا"[1].

_ الشيخ محمود محمد مصطفى بيرم من " تونس".

_ الشيخ عبد الرحمن التادلي من "المغرب".

_ الشيخ محمد مرتضى الزَّبيدي صاحب "تاج العروس من جواهر القاموس"، أخذ عنه من "القاهرة".

وقد بلغ عدد الشيوخ أبو راس الناصري ما يناهز الأربعين شيخا، ذكرهم في رحلته "فتح الإله ومنته"، وذلك من خلال الباب الثاني تحت مسمى "في ذكر أشياخي النافضين عنّي قشب أوساخي: شريعة، وحقيقة، وقرآنا، وطريقة".

***3_ تلامذتـــــه:*** لقد كان تلامذته بالمئات، حيث بلغ عددهم سبعمائة وثمانون طالبا، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

_ الشيخ أبو حامد العربي المشرفي "حفيد شيخه عبد القادر المشرفي".

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص50.

_ الشيخ محمد السنوسي "ابن مستغانم" ومؤسس "الطريقة السنوسية"[1].

_ الشيخ العربي بن السنوسي.

_ الشيخ مصطفى بن عبد الله.

_ الشيخ عبد القادر بن السنوسي.

_ الشيخ الأمير عبد القادر "فخر الجزائر".

***4 _ مؤلفاتـــه:*** تعد مؤلفات أبو راس الناصري من أهم ما خلفه في مسيرته العلمية، إذ عكست سعة اطلاعه وتنوع معارفه في مختلف المجالات، خاصة التاريخ والرحلة والفقه وعلوم القرآن وغيرها.. حيث أنه كان يعتز ويفتخر بكثرة مؤلفاته بكونه لا يعلم أحدا أكثر منه تأليفا إلا قدوته الإمام عبد الرحمن السيوطي، ويقول في ذلك: "وما أعلم أحدا أكثر التآليف _ بعده_ غيري: والكمال لله"[2].

ومن بينها:

**أولا:** التفسير وعلوم القرآن:

_ "مجمع البحرين " في ثلاثة أسفار.

_ "تقييد على نظم الخرّاز في رسم القرآن" و "الدّرر اللّوامع" و "الطّراز".

**ثانيا:** الحديث:

_ مفاتيح الجنة وأسناها في الأحاديث التي اختلف العلماء في معناها.

_ الآيات البينات في شرح دلائل الخيرات.

---

[1] ينظر: أبو راس الناصر المعسكري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، تنسيق: بن عمر حمدادو، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران – الجزائر، 2016، ص11.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص183.

_ السيف المنتضى فيما رويت بأسانيد الشيخ مرتضى.

**ثالثا:** علم الأصول:

_ تشنيف الأسماع في مسائل الإجماع.

_ حاشية على شرح المحلى لجمع الجوامع.

_ قاصي الأوهاد في مقدمة الاجتهاد.

**رابعا:** علم الكلام والتوحيد:

_ "كفاية المعتقد ونكاية المنتقد" وهو شرح "العقائد الكبرى" لإمام محمد بن يوسف السنوسي.

_ "أنوار البراجيس بشرح عقد الجمان النفيس" لأبي زيد عبد الرحمن التجيني.

**خامسا:** التصوف:

_ الزهر الأكم في شرح الحكم أو فتح الإله في التوصل إلى شرح حكم ابن عطاء الله.

_ الحاوي لنبذ التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي.

**سادسا:** علم النحو:

_ الدّرة اليتيمة التي لا يبلغ لها قيمة.

_ الحاشية الكبرى على شرح المكودي.

_ النكت الوافية بشرح المكودي على الألفية.

**سابعا**: اللغة:

_ ضياء القابوس على كتاب القاموس.

_ رفيع الأثمان في لغة الولائم الثِّمان.

**ثامنا**: التاريخ:

_ زهر الشماريخ في علم التاريخ.

_ الوسائل إلى معرفة القبائل.

_ المنى والسول من أول الخليقة إلى بعثة الرسول.

_ عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.

_ الحلل السندسية في فتح ثغر وهران والجزيرة الأندلسية.

_ الخبر المعرب الحال بالأندلس وثغور المغرب.

_ مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتمى وذهب.

**تاسعا**: المنطق:

_ القول المسلم في شرح السلم.

**عاشرا**: البيان:

_ الأماني على مختصر سعد الدين التّفتزاني.

**حادي عشر**: الأدب:

_ النّزهة الأميرية في شرح المقامات الحريرية.

_ الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية.

**ثاني عشر**: القصائد:

_ البشائر والإسعاد في شرح بانت سعاد.

_ نيل الأرب في شرح لامية العرب.

_ الوصيد في شرح سلوانية الصيد.

_ الدرة الأنيقة في شرح العقيقة.

_ الجمان في شرح أبي عثمان.

_ حلّتي ونحلتي في تعدّد رحلتي.

***5_ رحلاته:*** عرف أبو راس تجربة السفر والترحال منذ صغره، إذ كانت وسيلة لطلب العلم وتوسيع المدارك والاتصال بالعلماء في مختلف الأمصار، وقد قام بعدة رحلات داخل وخارج الوطن، فتنوعت بين العلمية والدينية، حيث سجل بعض رحلاته في كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، فخصص الباب الثالث تحت مسمى "في رحلتي إلى المشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء والأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"، ومن بين رحلاته التي ذكرها:

_ العاصمة، وهران، قسنطينة، مصر، تونس، المغرب، الشام، غزة...وغيرها، حيث سأتطرق لها بشيء من التفصيل في الفصل التطبيقي.

_ كما أنه حج مرتين، الأولى في 1204هـ وكانت أكبر رحلاته، والثانية سنة 1226هـ.

وخلال هذه الأسفار التقى بعدد من العلماء وحضر مجالسهم واستفاد من معارفهم، كما اطلع على أحوال الناس وعاداتهم وأنظمتهم الإجتماعية، وقد كان لهذه الرحلات أثر بالغ في توسيع مداركه وصقل شخصيته العلمية، إذ انعكست مشاهداته وتجربته في عدد من

مؤلفاته، خاصة كتابه الذي ذكرته سابقا "فتح الإله ومنته"، الذي دوَن أخبار رحلاته وما شاهده في أسفاره، فغدت الرحلة عنصرا أساسيا في تكوينه العلمي والفكري.

***6_ وفاتـــــه:*** بعد حياة حافلة بالعطاء والتأليف والترحال، "توفي شيخنا أبو راس الناصري رحمه الله وأكرم مثواه يوم الأحد 15 شعبان 1238هـ/27 أفريل 1823م، وقد جاوز التسعين سنة من عمره، وصلى عليه عدد وافر من الناس حوالي ألف وخمسمائة مصلي بإمامة تلميذه أحمد الدايج المعروف بلقب الخرشي الكبير، ودفن قرب داره ومسجده حيث ضريحه المعروف به اليوم على ضفة النهر الفاصل بين داخل بلد معسكر وحي (بابا علي) متصلا بالسوق الأهلي وأقيم على قبره مشهد وبناية هي قائمة إلى اليوم"[1].

ويرجح أن سبب وفاته كان اصابته بوباء خطير الذي انتشر في عهد الباي حسن بن موسى، حسب ما ذكره مسلم عبد القادر لقوله: "وحدث في عهده (يقصد الباي المذكور) وباء عظيم تكررت عودته، ومات به خلق كثير، وممن مات به حافظ العصر أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعكسري"[2].

شكلت وفاته نهاية مسيرة طويلة من الجدّ والإجتهاد في طلب العلم ونشره، تاركا وراءه رصيدا علميا معتبرا ومتنوعا في مجالات التاريخ والرحلة وغيرها، حيث عُرف بكثرة إنتاجه العلمي وتنوع مؤلفاته التي عكست سعة اطلاعه وعمق تجربته، كما خلف أثرا واضحا في الوسط العلمي من خلال ما قدمه من معارف وما دونه من مشاهدات ورحلات، جعلت منه أحد الأعلام البارزين في عصره، ورغم رحيله، بقي اسمه حاضرا في الدراسات والبحوث،

[1] ينظر: عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط7، 1994م، ص577.

[2] ينظر: مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تح وتق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص30.

وبقيت مؤلفاته مصدرا مهما يعتمد عليه الباحثون لفهم البيئة العلمية والثقافية التي عاش فيها.

***ثانيا:*** التعريف بكتاب "فتح الإله ومنته":

تميز العهد العثماني بظهور لون أدبي جديد عُرف بأدب الرحلة أو الرحلات الأدبية، حيث ارتبط هذا الجنس الأدبي بالسعي إلى توسيع المعارف العلمية والأدبية من خلال الترحال، وتصحيح، وتوثيق، والحصول على الإجازات العلمية، خاصة في مجالات الفقهية والدينية والحديثية. وتجلى ذلك في الاهتمام بالبحث عن أمهات الكتب ومصادرها، والإتصال بالفقهاء والعلماء، وحضور المجالس العلمية، والمشاركة في المناظرات الفكرية، مما ساهم في دائرة الحوار العلمي، ومن أبرز المصنفات التي تندرج ضمن أدب الرحلة كتاب "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، للعلامة محمد أبو راس الناصر المعسكري الجزائري، الذي يعد من أهم أعمال هذا المجال.

## 1 _ الدراسة الظاهرية للكتاب:

أولا: البطاقة الفنية للكتاب:

- عنوان الكتاب: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.
- المؤلف: محمد أبو راس الجزائري.
- ضبط وتحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري.
- تصدير: أبو القاسم سعد الله.
- دار النشر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- البلد: الجزائر.
- رقم الطبعة: الأولى.
- سنة النشر: 1990م.
- عدد الصفحات: 185.

ثانيا: الوصف الخارجي للكتاب:

غلاف الكتاب ذي طابع بسيط وكلاسيكي، يغلب عليه اللون الأخضر الداكن مائل قليلا إلى البهتان، ما يوحي أنه كتاب قديم أو كثير الإستعمال، سطح الغلاف يبدو خشنا قليلا.

في منتصف الغلاف تقريبا، كُتب العنوان بخط عربي أسود واضح وأنيق، يتوسط الصفحة بشكل منظم. حجم الخط أكبر في العنوان الرئيسي، ثم يتدرج إلى خطوط أصغر للنصوص الفرعية أسفله. الخط المستخدم تقليدي، ما يمنح الكتاب طابعًا تراثيًا، لا توجد صور أو

رسومات على الغلاف، بل يقتصر التصميم على النص فقط، مما يعطيه مظهرًا بسيطًا. كما يظهر اسم المؤلف وبعض المعلومات الإضافية أسفل العنوان بخط أصغر. والإطار الخارجي للغلاف غير مزخرف، ويعكس الغلاف طابعا علميا ودينيا تقليديا يتميز بالبساطة والجدية دون عناصر زخرفية حديثة.

***2_ محتوى الكتاب:*** يعد كتاب "**فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته**" من المؤلفات التي تجمع بين الطابع الرحلي والتاريخي والسيرة الذاتية، وهي "متوفرة لحسن الحظ كاملة، محققة ومطبوعة، أشرف على طبعها محمد بن عبد الكريم الجزائري، الذي اعتمد على ثلاث نسخ مخطوطة:

_**المخطوطة الأولى** للشيخ عبد الحي الكتاني المغربي الأصل الجزائري الموطن وتوجد في خزانة بالرباط.

_**المخطوطة الثانية** للشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي الجزائري.

_**المخطوطة الثالثة** فهي ملك للأديب الشيخ أحمد جلول البدوي الجزائري.

وقد قام المحقق المذكور بالمقارنة بين النسخ الثلاثة، وعرّف بكثير من الأعلام، والبلدان كما شرح الكثير من الألفاظ والمعاني، لكن الكتاب تنقصه الفهارس العّامة المختلفة"[1].

تضمن الكتاب على موضوعات متنوعة عكست تجربة مؤلفه أبو راس الناصري العلمية والدينية، وقد حرص المؤلف على تسجيل مشاهداته، وتوثيق رحلاته، وذكر ما مرّ به من أحداث ومواقف، وما لقيه من العلماء والمشايخ، فجاء الكتاب ثريا بالمادة العلمية والأدبية.

ويُقال أن هذا الكتاب يعد من آخر أعماله، فقد تفرغ بعد عودته من الحج للمرة الثانية إلى التأليف، فكان من جملة ما صنفه كتاب "فتح الإله ومنته"، واستمر على ذلك حتى وفاته رحمه الله[2].

وقد انتهج أبو راس خطة قائمة على قسيم كتابه إلى خمسة أبواب:

_**الباب الأول:** خُصِّص هذا الباب للحديث عن حياة أبو راس الناصري ونسبه، وسماه "**في ابتداء أمري**"، حيث ركز فيه على أصوله العائلية وطفولته، كما تناول بعض أفراد أسرته، فذكر والدته ووالده وأخته(حليمة) وأخويه الأصغر(عبد القادر) والأكبر(ابن عمر)[3]، إلى جانب جده وأسلافه، مبرزا مكانتهم وعلو همّتهم، كما تطرق في هذا الباب إلى بداياته

[1] ينظر: سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، ط1، 2011م، ص41.

[2] ينظر: سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، المصدر نفسه، ص42.

[3] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص19.

الأولى، وأولى خطواته في طلب العلم، وما رافق ذلك من تنقلات بين مراكز التعليم والتحصيل العلمي.

**_الباب الثاني:** خُصص الباب الثاني في ذكر شيوخه، وسماه "**في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي: شريعة، وحقيقة، وقرآن، وطريقة**"[1]، وهو عنوان يحمل دلالات على تواضعه واعترافه بالفضل شيوخه وما أسدوه إليه من علم وتوجيه، إذ شبههم بمن أزال عنه أوساخ الجهل ونقاه بالعلم ظاهرا وباطنا، في قوله: "النافضين عني قشب أوساخي". وقد عرف في هذا الباب بشيوخه، مبتدئا بوالده ومنتهيا بالشيخ السنوسي بن السنوسي، وبلغ عددهم ما يقارب الخمسين شيخا، اجتمع بهم وتتلمذ على أيديهم، وأخذ عنهم مختلف المعارف والفنون، كاللغة، والتصوف، والفقه، وغيرها من العلوم الشائعة في عصره.

**_الباب الثالث:** خُصص هذا الباب للحديث عن رحلاته، وقد جاء بعنوان: "**في رحلتي** للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي من مراجعة والكلام"، ويعد هذا الباب من أهم أجزاء الكتاب بالنسبة لموضوع دراستنا، لما يتضمنه من مادة رحلية غنية تكشف عن أسفاره وتنقلاته وتجربته في الترحال. وقد تناول فيه أبو راس الناصري رحلاته داخل الوطن الجزائري، ثم خارج الوطن إلى تونس ومصر وبلاد الشام...، حيث كانت آخر محطاته العريش الواقعة في شمال سيناء، كما أشار إلى ما لقيه من العلماء والأعلام، وما دار بينهم من مناقشات ومراجعات علمية.

**_الباب الرابع:** الذي جاء بعنوان: "**الأسئلة وما يتعلق بها**"، خصصه أبو راس للموضوعات والمسائل التي نوقشت في المجالس العلمية التي حضرها أثناء رحلاته، حيث عرض فيه ما ناقشه وما أجاب عنه في مختلف الأماكن التي زارها، كما تطرق فيه إلى الحوارات والآراء التي دارت بينه وبين العلماء والمشايخ الذين التقى بهم.

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص41.

**_الباب الخامس:** فقد جاء تحت عنوان "**العسجد والإبريز، في عُدّة ما ألّفت بين بسيط ووسيط ووجيز**"، وقد خصصه المؤلف لذكر مصنفاته وتعدادها، حيث قام بو راس بذكر عناوين ما ألف من كتب ورسائل، كما علق على بعضها شرحا وتوضيحا وتعريفا بمضامينها[1].

يعد كتاب فتح الإله ومنته ترجمة شخصية وافية للمؤلف أبو راس الناصري، إذ يستفاد منه في التعرف على جوانب متعددة من حياته، وما اتصل به من الفقهاء والمشايخ، إضافة إلى ذكر مؤلفاته وعناوينها، ويعتبر الكتاب مصدرا غنيا بالأخبار، لا يقتصر على الجزائر فحسب، يل يشمل أيضا بلاد المغرب العربي والمشرق الإسلامي. كما دون فيه المؤلف انطباعاته عن العواصم العلمية التي مر بها خلال رحلاته، وما جرى له من لقاءات وتبادل للإجازات مع علمائها.

في ختام هذا الفصل النظري، وبعد التطرق إلى أدب الرحلة من خلال إطاره المفاهيمي وتطوره التاريخي، يتضح أن هذا الجنس الأدبي يعد من أهم الأجناس التي تجمع بين التوثيق والمعرفة والوصف، لما يعكسه من تجارب الرحالة وما ينقله من مشاهدات وانطباعات عن مختلف الأمكنة والأعلام، كما أبان هذا الفصل عن الخصوصية التي تميز بها أدب الرحلة، سواء من حيث وظيفته المعرفية أو قيمته التاريخية والأدبية. ومن هذا المنطلق، شكل هذا التأصيل النظري قاعدة أساسية سيتم الاعتماد عليها في مقاربة الجانب التطبيقي في الفصل الموالي.

[1] ينظر: سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، المصدر السابق، ص42.

# الفصل الثانـي:

الدراسة التطبيقية للرحلة.

(فتح الإله ومنته)

## ***المبحث الأول:*** مستويات السرد في الرحلة:

قبل التطرق إلى مستويات السرد في الرحلة، تجدر الإشارة إلى مفهوم السرد عند الأدباء والنقاد، فمفهوم السرد عند د. سميرة أنساعد: "السرد تأليف شفوي أو كتابي، يقوم به مؤلف هو السارد، يعرض فيه أحداثا جرت في أماكن خاصة، وأزمنة معينة، قامت به شخصيات مختلفة فاعلة وثانوية. وقد يكون السارد في هذا المنتوج السردي إما شخصية مشاركة في الحدث مع بقية الشخصيات، أو مجرد راوٍ يحكي الحدث، كما قد يكون راويا وشخصية في آن واحدٍ"[1].

وعرف عبد الملك مرتاض السرد بقوله: "السرد في أصل اللغة العربية هو التتابع الماضي على سيرة واحدة.. ثم أصبح السرد يطلق في الأعمال القصصية على كل ما خالف الحوار، ثم لم يلبث أن تطور.. إلى معنى اصطلاحي.. بحيث أصبح يطلق على النص الحكائي أو الروائي أو القصصي برمته. فكأنه الطريقة التي يختارها الروائي.. ليقدم بها الحدث إلى المتلقي..."[2].

اتفق النقاد على أن السرد: "عملية يقوم بها السارد أو الحاكي(أو الراوي)وينتج عنها النص القصصي المشتمل على اللفظ(أي الخطاب) القصصي والحكاية(أي الملفوظ) القصصي"[3].

وعليه، يمكن القول إن السرد بوصفه طريقة فنية في تقديم الأحداث وتنظيمها داخل النص، حيث يقوم على نقل الوقائع بطريقة متسلسلة تسمح للقارئ بمتابعة مجريات الأحداث وفهمها. ويعد السرد من أهم العناصر التي يقوم عليها النص الرحلي، إذ يساهم في بناء التجربة الرحلية وتقديمها بشكل منظم يجمع بين الوصف والحكي والتعليق.

---

[1] ينظر: سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، المصدر السابق، ص103.

[2] ينظر: سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، المصدر نفسه، ص103.

[3] ينظر: سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، د.ت، ص73، 74.

ونظرا لتعدد تعريفات السرد واختلافها، نكتفي بما سبق ذكره من التعريفات، أما من حيث المستويات التي قسمه إليها النقاد فسأشير إليها فيما يأتي.

أما من حيث مستويات السرد، فقد قسمه النقاد إلى مستويات متعددة بحسب موقع الراوي وعلاقته بالأحداث التي يرويها، ويظهر في النص الرحلي مستويان بارزان، "يفرق جينيت في هذا الصدد بين مستوى أول هو السرد الابتدائي أو السرد من الدرجة الأولى narration primaire ou au premier degré والسرد من الدرجة الثانية narration au second degré، فعندما يكتب المؤلف رواية أو أقصوصة يمثل هذا العمل سردا ابتدائيا للحكاية أما ان أخذ الكلمة داخل هذه الرواية أو الأقصوصة شخصية أو حتى الراوي نفسه ليقص حكاية أخرى فذلك هو السرد من الدرجة الثانية. ومن المفيد أن ندرس العلاقات التي تربط بين هذين المستويين في النص القصصي أي أن نبين وظائف السرد من الدرجة الثانية بالنسبة للسرد الابتدائي"[1].

ومن خلال هذه المعطيات النظرية، نحاول تناول الظاهرة السردية في رحلة أبو راس الناصري من خلال مؤلفه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"، وذلك بالنظر إلى جملة من الجوانب التي أسهمت في تشكيل البناء السردي للنص، من حيث مستويات السرد المعتمدة فيه، وطريقة عرض الأحداث وتسلسلها، إضافة إلى حضور الراوي ودوره في نقل الوقائع وتوجيه مسار الحكي. كما نسعى إلى ابراز ما يتميز به النص الرحلي من تنوع في أساليب السرد، بما يمنحه طابعا خاصا يجمع بين الإخبار والوصف والتوثيق.

عندما يقرأ القارئ رحلة أبو راس الناصري، يلاحظ منذ البداية أنها ليست مجرد رحلة وصفية عادية، بل هي أقرب إلى سيرة ذاتية يستند فيها المؤلف إلى تجربته الشخصية في

[1] ينظر: سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى قصة، المصدر السابق، ص100.

الحياة. وهذا ما يظهر بوضوح في اعتماده على ذاته كمرجع أساسي في السرد، فحين نتأمل الباب الأول الذي سماه في ابتداء أمري، نجد أن أبو راس يبدأ بتقديم نفسه وذكر نسبه وأجداده، وما يتعلق بأسرته، حيث يكثر من العبارات "أمّا ابتداء أمري.."، "ففي عامي الأول.."، "ولما ذهبت.."، "وأما ما نذكره من نسبي.."، "ثم أني بقيت.." التي تعرف به وتبرز مكانته، إما بوصفه معرفا بنفسه أو متحدثا عن أصوله. ويتجلى ذلك أيضا في حديثه عن دور أجداده وتعليمهم في المدراس القرآنية واهتمامهم بطلب العلم، مما يعكس اعتزازه بانتمائه وبذور تكوينه العلمي. ويؤكد ذلك ما جاء في قوله: "ومن أجدادي ذو الكرامات الفائقة، والمناقب الرائقة، والزلفة العجيبة، والمزايا الغريبة، ذو المواهب، والخير كثير (...)هذا ما بلغنا عن أسلافنا ولله الحمد وما بقي وأكثر وأبهر وأزهر، وأظهر، وأشهر، مع علم أن بركاتهم وحركاتهم المعنوية لم يطو بحمد الله بساطها، ولا ذهب رونقها وانبساطها، إلا أن خير الأمور أوسطها. وأن البدر دائم الانارة والإضاء، وخزائن الله لا لها إنقضاء"[1].

عندما يقوم الكاتب برسم ملامح حياته الشخصية، نجده يفرض على نفسه نوعا من الرقابة الذاتية، حيث يسعى إلى التحري عن الصدق والدقة فيما يقدمه من أقوال، مبتعدا بذلك عن الخيال والمبالغة، كما يصرح أنه يستلهم في ذلك نماذج كتابية سابقة، اعتمدها شيوخ وعلماء أفاضل كان لهم السبق في هذا النوع من الكتابة، فهو بذلك يشير إلى التحدث بنعمة الله تعالى عليه من فضل وتوفيق فيقول في هذا الصدد: "ابتداء أمري بفضله تعالى وكرمه" وقوله أيضا: "وأما ما نذكره من نسبي ان شاء الله فسلفي فيه الإمام عبد الرحمن السيوطي في حسن المحاضرة، في أخبار مصر والقاهرة، وكنى نفسه أبا الفضل (...) وسلفي في التحدث بنعم الله أيضا مؤلف جمع الجوامع في الأصول وهو تاج الدين عبد الوهاب ابن الشيخ تقي الدين السبكي..."[2].

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الاله ومنته، المصدر السابق، ص28، 29.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، المصدر نفسه، ص16.

ومن خلال ما ذكرنا سابقا أن للسرد مستويين، فالأول تحت مسمى السرد الابتدائي الذي "يتعلق بأحداث السفر، والتنقل من الوطن، أو محل الإقامة، في اتجاه الحجاز الشريف، وبأحداث شتى، تصاحب السفر، وتتزامن معه، ومنها أحداث الظعن، والارتحال، كتأمين وسائل النقل، ورعايتها، والاهتمام بتوفير الزاد، والتسوق في المراكز التجارية، ومجابهة مصاعب السفر في البر والبحر، وصدّ العوارض والعوائق المادّية والبشرية، التي تحمل دون إكمال السفر والتمتع بالسلامة، ومما يدخل في هذا الإطار كذلك أحداث الإقامة في المدن والقرى، وما يتبعها من أحداث اجتماعية كاللقاءات والزيارات، والمشاهد، والأعمال التعبدية: كالصلاة، والقيام بمناسك الحج والعمرة"[1]، حيث هذا المستوى من السرد يشكل مسار العام للرحلة، من خلال عرض تنقلات الرحالة وأهم الوقائع التي مر بها أثناء أسفاره.

***1-السرد الابتدائي:*** يتجلى هذا النوع من السرد في رحلة أبو راس الناصري من خلال عرضه للمسار العام للأحداث رحلته، حيث يعتمد على تتبع تنقلاته منذ انطلاقه في السفر إلى غاية وصوله إلى مختلف المحطات التي مر بها، فيبرز هذا السرد في الباب الثاني الذي سماه "في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة، وحقيقة، وقرآنا، وطريقة"، والباب الثالث الذي سماه "في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"، فيقوم أبو راس على نقل الوقائع الأساسية بشكل متسلسل ومنظم، يعكس التجربة الفعلية للرحالة أثناء انتقاله بين الأقطار. كما يظهر ذلك في حديثه عن مراحل سفره ولقاءاته الأولى، ونلتمس ذلك من خلال قوله: "فأول رحلتي للجزائر (العاصمة) صنها الله من سوء الدوائر فلقيت: بها الفقيه المسمى الشيخ القاضي المفتي محمد بن جعدون، فقال لي من هو شيخك؟ قلت المشرفي(...) ولقيت بها: قاضيها

[1] ينظر: سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، المصدر السابق، ص104، 105.

اذ ذاك الفقيه الدارك، الشيخ محمد بن مالك، فضيفني، وجمع العلماء علي، وتمادوا وسألوني أسئلة صعاب عظيمة، فتفاوضنا فيها مفاوضة كبيرة إلى قرب الفجر"[1]، وفيما يخص "قسمطينة"، نجده يسرد لنا العديد من الصفات التي تتعلق بالمشايخ الذين التقى بهم، حيث يصفهم ويثني عليهم، كما يظهر ذلك في مدحه لأحد شيوخه قائلا: "ولما دخلت قسمطينة نزلت على محط رحال الأفاضل، عالم تلك الدرّة وعالمها، وصالحها وناصحها، وزاهدها ورائدها، وذروة شرفها وبركة سلفها، وأنجب خلفها، الأمجد الأنجد، الأسعد الأصعد، العلامة الشيخ سيدي محمد ابن الشيوخ، اولي النهي والرسوخ"[2].

وقال في اتجاهه الى تونس "ثم ذهبت الى تونس أم البلاد، ومثوى الطارق والتلاد، هي التي على عمل، أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسي الذي بعصاه ترعى الهمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمل...واجتمعت بعلمائها واجلة فقهائها، ونزلت على شيخها ومفتيها الذي لا شيء عليه من نصوص الفتاوى بمحجوب، ذي العلم الغزير، والرأي الأثير، والعزم والحزم، والجد الساعي الى مساعي الأب والجد"[3].

ويفاجئنا أبو راس الناصري في سرده للأحداث بحرصه على ترتيبها ترتيبا متسلسلا ودقيقا، إذ ما إن يدخل بلدا أو مدينة حتى يعرض ما جرى له فيها وفق تسلسل واضح، بدءا بلقاء العلماء والأمراء، ثم زيارته للمساجد، وحضوره مجالس الشيوخ، وهكذا على التوالي. ونلمس هذا التنظيم جليا عند دخوله إلى غزة، فيقول في هذا الصدد: "ثم رحلت الى غزة فزرنا بها قبر سيدنا هاشم: ثالث آباء النبي صلى الله عليه وسلم، ولقيت علماءها وأمراءها، فضيفوني، وأكرموني، وتناظرنا في مسائل العلم مختلفات برهة من الزمان، فاعترفوا لي بالفضل والعلم والحفظ"[4].

---

[1] محمد أبو راس الجزائري، فتح الاله ومته، المصدر السابق، ص91.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الاله ومنته، المصدر السابق، ص98.

[3] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الاله ومنته، المصدر نفسه، ص108، 109.

[4] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الاله ومنته، المصدر نفسه، ص120.

ومن خلال قراءة الباب الثالث من الرحلة، يتبين أن الكاتب يغلب عليه الطابع الوصفي، حيث يحرص على تسجيل كل ما مرّ به في الأمكنة التي زارها، معتمدا في ذلك على صوته الذاتي، الأمر الذي أتاح له حرية أوسع في تصوير الصفات وسرد الوقائع، كما يقال ليس من رأى كما سمع، كما نلمس في هذه الرحلة نوعا من الانتظام في عرض الأحداث، مما يجعلها تتشكل في صورة خطاب متكامل، يعكس حركة الرحالة وقوة صبره، وهو ما يتجلى في كثرة تجواله وتنقله بين عدد كبير من الحواضر الإسلامية آنذاك، سواء داخل بلده أو خارجها.

***2_ السرد الثانوي:*** يتجلى هذا النوع من السرد في أبو راس من خلال إدراجه لجملة من الحكايات والأخبار التي تتخلل السرد الأساسي، "فيعد السرد من الدرجة الثانية قليلا، مقارنة بالسرد الابتدائي السابق"[1] المذكور، ويلجأ أبو راس "في رحلتي للمشرق والمغرب.." إلى هذا النوع من أجل ابراز أوجه التشابه أو الاختلاف بين حدثين، أو مكانين داخل السرد، مما يساعد على توضيح المعاني وإغناء النص أو شخصيتين فعند دخوله إلى الجزائر ولقي فقيهها وعالمها الشيخ السيد محمد بن الحفاف وطرح عليه سؤال، فيقول أبو راس في هذا: "وقد قال لي بمجلس حكمه، ما تقول في النسخة التي يقول فيها: العبد الفقير المضطر لرحمة ربه؟ فقلت فالمضطر على هذه النسخة يجوز أن يكون نعتا للعبد أو فقير.. الخ هو جرى منه على غير الغالب في أنهما قد يكونان مشتقين، كما صرح بذلك ابن عصفور في الأول، والأزهري في الثاني"[2].

ونجد أيضا عند ذكره لحدثين متباينين فنلتمسه عند نزوله إلى الشيخ محمد بن مالك، إذ يقول: "كنت نازلا عند العلامة الدارك، الشيخ الكبير السيد محمد بن مالك، فأمرني من الغد

[1] ينظر: سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، المصدر السابق، ص109.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الاله ومنته، المصدر السابق، ص95.

بالذهاب معه للجامع، فشرع في المسألة كسيل منهمر وبحر يمده من بعد سبعة أبحر، لم يدع فاذة الا أدرجها، ولا شاذة الا استخرجها، فعرفت أن الحسن للنشب، وانه وعاء من أوعية العلم المرصود، فقد وفى بالمقصود، ومثل ذلك ان السلطان أبا عنان المريني أمر الشريف التلمساني بتدريس حديث إذا ولع الكلب في إناء أحدكم... الخ، فقرره بأسانيده ورجاله وعلله ولغته، وذكر كل من تكلم فيه، فقال السلطان: اني رأيت العلم يخرج من منابت شعره"[1]، فنلاحظ أنّ الكاتب يوظّف تباين الأحداث من خلال الانتقال من تجربة ذاتية مع محمد بن مالك إلى حكاية منقولة عن أبو عنان المريني، وهو ما يندرج ضمن السرد الثانوي بوصفه حكاية مُدرجة داخل المتن السردي، أسهمت في تدعيم الخطاب وتقوية دلالته عبر الانتقال من المعايشة الفردية إلى الشهادة الخارجية.

ويظهر لنا أيضا من خلال هذا المقطع علاقة التشابه بين تفوق الشريف التلمساني في الشرح والتدريس وإعجاب السلكان أبي عنان المريني به، وبين تفوق الخطيب محمد بن الشاهد الجزائري وإعجاب أبو راس به، حيث يصفه بامتلاكه قدرة فائقة في الشرح فيقول في ذلك: "السيد الحاج محمد ابن الشاهد، عالم الجزائر وعاملها، وقطب رحاها، وشمس ضحاها، فقيه علامة، حافظ بارع، نظار، مفت، مدرس، محقق، صدر، قدوة، أسوة، أصيل، جليل، نبيل، نزيه، فقيه، خاشع، خاش، سني، سُنّي، حضرت له يدرس الموطأ، وقد كشف عنها كل غطاء، ووطأ به كل لفظ أو معنى أبي.."[2].

وفي الأخير، نلاحظ أن السرد الثانوي في رحلة أبو راس الناصري جاء مكملا للسرد الابتدائي، حيث يلجأ إليه السارد من حين لآخر لإدراج بعض الأخبار والحكايات التي تتعلق بالشيوخ والعلماء، أو بمسائل علمية، وهو ما يضفي على النص نوعا من التنوع، ويجعله لا يقتصر على عرض أحداث الرحلة فقط، بل يتجاوز ذلك إلى نقل المعرفة والتجارب.

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الاله ومنته، المصدر نفسه، ص96.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الاله ومنته، المصدر السابق، ص96.

وفي ضوء ذلك يمكن القول إن السرد في رحلة أبو راس الناصري تعددت أشكاله، غير أنه بقي في نفس الوقت قائما على نموذج واحد، يتمثل في حضور ضمير المتكلم. فمنذ بداية الرحلة، يلاحظ القارئ أن السارد يتحدث عن ذاته وينطلق من تجربته الشخصية، ويستمر هذا الأمر إلى غاية نهايتها، مما يجعل مسار السرد ثابتا نوعا ما. وخير دليل على ذلك نلمسه في عناوين الأبواب، التي يطغى عليها ضمير "الأنا" فالباب الأول "في ابتداء أمري"، والباب الثاني "في ذكر أشياخي..."، والباب الثالث "في رحلتي للمشرق والمغرب..."، وهكذا حتى الباب الخامس والأخير منها.

وفي ختام هذا المبحث، يتبين أن رحلة أبو راس الناصري تقدم لنا عملا سرديا واحدا ومتكاملا، يجمع بين مختلف مستويات السرد، ويعبر من خلاله السارد عن تجربته الشخصية ورؤيته للأحداث التي عاشها. غير أن هذا التعدد في أشكال السرد لا يجعل النص سهل الإدراك بشكل مباشر، بل يتطلب من القارئ نوعا من التأمل والجهد لفهم أبعاده ودلالاته، ويعود ذلك الى غنى المادة السردية.

## ***المبحث الثاني:*** موضوعات الرحلة:

منذ أن خلق الإنسان، ارتبطت حياته بحب التنقل والترحال، إذ ظل دائم البحث عن المعرفة وتحصيل الخبرة، أو السعي نحو الرزق واكتشاف عوالم جديدة. وقد جعل هذا الميل الطبيعي من السفر ظاهرة إنسانية قديمة، أسهمت في تواصل الحضارات وتبادل المعارف والثقافات بين مختلف الأقطار، كما أصبح الترحال وسيلة أساسية عند العلماء والرحالة لنقل تجاربهم وتدوين مشاهداتهم، مما أدى إلى بروز أدب الرحلة كجنس أدبي يجمع بين التوثيق والمتعة والمعرفة. ومن بين الشخصيات التي عاشت هذا النوع من التجربة العلمية والدينية نجد الشيخ والعلامة أبو راس الناصري، الذي قام برحلات متعددة إلى عدد من الحواضر الإسلامية، مسجلا فيها مشاهداته وانطباعاته، ومبرزا ما شاهده من حياة علمية وثقافية غنية، مما يجعل تجربته نموذجا مهما في هذا المجال الأدبي.

تعددت الرحلات في التراث العربي والإسلامي، فتنوعت بين رحلات سفارية، وحجازية، واستكشافية، وعلمية وغيرها، غير أن من أبرزها الرحلات الأدبية والعلمية التي تشكل مجال دراستنا، خاصة عند الشيخ والعلامة محمد أبي راس الناصري، وذلك من خلال كتابه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربه ونعمته". فهذا المؤَلفْ في جوهره سيرة ذاتية للكاتب، إلا أنه تضمن محطات متعددة وموضوعات مختلفة تصنف ضمن الأشكال السردية، حيث يغلب عليه طابع الحكي المتنوع. ويتجلى ذلك بشكل خاص في الباب الثالث، الذي خصصه لأدب الرحلة، متناولًا فيه رحلاته والذي سماه "في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"[1].

ومن خلال العنوان الذي جاء في شكل فقرة مختصرة، يتضح لنا مضمون الرحلة التي يتناولها الكاتب، حيث يعمد إلى عرض الأحداث التي شهدها، والأماكن التي زارها، وما التقى به من علماء وفقهاء، إذ يستهل الكاتب حديثه بتقديم أسباب تنقلاته داخل الوطن

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص91.

الجزائري وخارجه، في إطار تجربة الرحلة التي خاضها. فيقول في ذلك: "وأسوتي في ذلك رحله الجباهذة النحارير، والأسانيد الجماهير: كرحلة الامام ابن رشيد السَّبتي، والخطيب ابن مرزوق، ورحلة الشيخ ابي سالم عبد الله بن محمد العياشي، نسبة لقبيلة "أيت أعياش" من البربر بإزاء "تافلالت" وقد سمى ابن رشيد رحلته "ملأ العيبة في طول الغيبة الى مكة وطيبة في سته أسفار وكذا رحلة الشيخ أحمد بن الناصر وغيرهم"[1].

من خلال تتبع المسار الجغرافي في رحلة أبو راس الناصري، نلاحظ أنه لم يقتصر على مجال واحد، بل تنقل بين بلدان المغرب وبلدان المشرق، حيث بدأ رحلته من داخل الوطن الجزائري، ثم واصل تنقلاته إلى مناطق أخرى خارج الوطن، وصولًا إلى الحجاز. وقد حرص السارد على ذكر هذه التنقلات بشكل متتابع، من خلال عرضه للأماكن التي زارها، وما شاهده فيها من معالم، إضافة إلى ما رافق ذلك من لقاءات مع العلماء. وهو ما يجعل الرحلة قائمة على الحركة والتنقل، ويعكس رغبة الكاتب في طلب العلم واكتساب التجربة.

### 1- الرحلة داخل الوطن:

يبدأ السارد في عرض مسار رحلته داخل الوطن الجزائري، متخذًا من الجزائر العاصمة بداية لتنقلاته، فيقول في ذلك: "فأول رحلتي للجزائر العاصمة _صنها الله من سوء الدوائر_ فلقيت: بها الفقيه المسمى الشيخ القاضي المفتي **السيد محمد بن جعدون**، فقال لي: من هو شيخك؟ قلت: **المشرفي**، قال: كان في زمن ماض قدم عندنا _هو_ وشيخه **محمد المنور**. فقلت له: كيف وجدت شيخه لما باحثته؟ قال لي: لا نظير له في تحقيق الكبرى، وسكت ولم يرد شيئا وضيفني، ثم قال لي _بعد العشاء_: ما معنى قول المصنف ومن قوته الا دون الا لشح؟ فقلت له: ما حضرني. وبقي في قلبه شيء ولما طالع الكتب سلّم وطاب خاطره. ولقيت: قاضيها _اذ ذاك_ الفقيه الدارك، **الشيخ محمد بن مالك**، فضيفني وجمع

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص91.

العلماء علي، وتمادوا وسألوني أسئلة صعاب عظيمة، فتفاوضنا فيها مفاوضة كبيرة الى قرب الفجر، وان كل ما سددت عليهم بابا فتحوا لي آخر إلى أن أظهرني الله عليهم وسألوني بإجماعهم ورفعوا قدري وبجلوا أمري (....) جلست في حانوت بعض الطلبة، فجاء عالم الجليل، شيخ فاضل، مشار إليه، يقال له: **السيد عبد الرحمن البدوي القرومي**، فقال: من حضر هذا منه نجبائنا، ففاوضته وسألته عن أشياء فقهيه وأصولية ونحويه ولغويه وتوحيدية (....) ولقيت العلامة الأمين مفتي الجزائر وخطيبها **السيد الحاج علي ابن الأمير**، فوجدته يدرس في خطبه الإمام خليل، وقد ذكر فيها لواء الحمد (....) ولقيت: أيضا شيخنا العالم المشارك في أنواع العلوم الدارك الواسع الرواية الحسن الدراية صاحب الرحلة الجمّة الفوائد، حلوة الموائد، عذبة الموارد، الجليل القدر، المستوعي لما يفوت الحصر، سلس اللسان والعبارة، مليح التصريح والإشارة، أمجد النظار **السيد أحمد بن عمار**، عالم الجزائر محطّ الرحال المستفيد والزائر، وكذلك لقائه مع **الشيخ محمد بن الحفاف** وكذلك **السيد الحاج محمد ابن الشاهد** ولقائه **بعلماء ب بليدة**"[1].

ويواصل أبو راس الناصري عرض مراسلاته، كما يذكر ما دار بينه وبين العلماء من حوارات ومناقشات علمية وأدبية، بل ويدخل أحيانًا في مجادلات معهم، وذلك قصد توسيع معارفه وإثراء رصيده العلمي والفكري. ومن خلال ذلك، نلمس حرصه على التنقل من مكان إلى آخر طلبًا للعلم، والتفاعل مع مختلف العلماء، مما يعكس الطابع العلمي الذي يميز رحلته. في هذا الصدد يقول: "ولما دخلت قسمطينة نزلت على محط رحال الأفاضل، ومنبع الفضائل والفواضل، عالم تلك الدّرة وعاملها، وصالحها وناصحها، وزاهدها ورائدها، وذروة شرفها وبركة سلفها وأنجب خلفها، الأمجد الأسعد العلامة الشيخ سيدي محمد ابن الشيوخ، اولي النهي والرسوخ منهم: القطب الكبير، الغوث الشهير، **السيد عبد الكريم محمد الفكون**(...) ولما سمع **بعلماء البلد** أتوني للسلام جزاهم الله خيرا منهم: قاضي الجماعة الونيسي، **الشيخ الحاج الشهير السيد علي الونيسي**، كان فقيها علامة حافظا بارعا نظارا

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص91، 92، 95، 96.

أنجب أهل عصره، ومن مفاخر قطره، مدرس محقق، بدر علم منير، وصدر فنون شهير، قدوة أعدل أنزه صالح، محقق أفقه، له فوائد كثيرة، وزوائد أثيره وعوائد كبيرة فتذاكرنا في العلوم والفنون، والحديث شجون، حتى ذكرنا انبياء عليهم الصلاة والسلام(...) وقد قمت بمجلس الشيخ السيد محمد ومعي العلامة الدراكة الفهامة، الوالي الصالح النزية، الأنبل الأقبل الوجيه، واسع العلم، فصيح القلم، سريع الفهم، كريم الخلق، حلو المنظر، بعيد من التصنع، أرقى الناس طبعا، وألطفهم عبارة كثير الأوراد والتلاوة، جميل الهيئة معرض عن الملوك، طعم للفقراء، ممن يحصل الفخر بلقائه، والعلم من تلقائه، **أبو العباس الشيخ أحمد العباسي**"[1].

ثم يواصل أبو راس الناصري رحلته ليصل إلى **مدينة وهران**، حيث نزل ضيفًا على **الباي ابن عثمان**، وهناك التقى بعالم في الفقه والنحو واللغة، وهو **السيد محمد بن حسن**، مما أتاح له فرصة للاستفادة من معارفه والاتصال بأهل العلم، وفي هذا الإطار يقول: "وكنت مره قصدت وهران وافدا على حضره من ناب في مدحه لسان الحال، عن لسان المقال، ذي المقام الذي أطلعت أزهاره غمائم جوده، واقتضى اختياره بركه جوده، الملك الأصيل الذي كرم منه الاجمال والتفصيل، الرفيع الشأن، **السيد محمد باي ابن عثمان**، أخلص الله جهاده، ويسر في قهر أعداء الدين مراده بأبسط العدل والأمان (...) فانجر الكلام الى أن قلت: الأمر الفلاني «كلا شيء» –بفتح الهمزة– فقال لي لسان الدولة وفارس الجولة الذي عظم الله مكانه ورفعته (...) العالم الفقيه، الحبر النزيه، الأمثل الأفضل الأحسن الأكمل الأنبل الأقبل الأجمل ذو البلاغة والجزالة واللسن، **السيد محمد بن حسن**، من بيت علم والصيانة والنزاهة وأمانة، وبركة وخير، و قرى و مير ومنصب كريم، وحسب حميم. وكان –رحمه الله– ذا يد في النحو واللغة وسائر العلوم (تفرد بمعلومها للناسي والمعدوم) ولا سيما الأدب فينسل اليه من كل حدب، حتى انه كان من لهجته، وربيع حواسه ومهجته، فقال لي: قل كل «كلا شيء» بكسر الهمزة، ألا ترى أنك تقول «جئت بلا زاد»، بكسر الدال؟ وحرف

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص98، 99.

«لا» لا عمل له، فقلت له: ان «الكاف» لا تعيق «لا» عن العمل، كهمزة الاستفهام – والباي رحمه الله ينظر إلينا–"[1].

شدّ أبو راس الناصري رحاله متجهًا نحو خارج الوطن، وهو ما سنوضحه لاحقًا في سياق حديثنا، ثم عاد بعد ذلك إلى بلده ليستأنف مسيرته، حيث قصد مدينة تلمسان على وجه الخصوص، قصد التعلم ومواصلة طلب العلم، مما يبيّن حرصه الدائم على الترحال في سبيل المعرفة، ونبرهن على ذلك بقوله: "ولما رجعت من فاس دخلت تلمسان فسئلت عن علمائها، وملوكها، ومن اختطها، فقلت: أول من اختطها «بنو يفرن» قبل الإسلام، ثم شاركهم اخوتهم: مغراوة فيها، وكان بينهما منافسة وحروب (...) ثم ملكها الموحدون، ثم بنو مرين، ثم بنو عبد الوادي، ومنهم أخذها الأتراك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، ثم صارت بين الفريقين فتنة الى أن صفت للأتراك سنه ست وخمسين من القرن المذكور. وأما علماؤها فأولاد ابن زاغو من مغراوة، والعقابنة من قرية بالأندلس، والمرازقة من عجيسة: أهل «جبل وسلات» بإفريقية. وأتى سلفهم لتلمسان، والمقارة، ومن «مقرة» قرية بزاب افريقية، وأولاد الإمام والشرفاء الأدارسة: أبو عبد الله واولاده، والشيخ أحمد بالحاج المانوي وبنوه، وكنت سمعت أن بها من أضرحة العلماء أربعة آلاف..."[2].

ويستمر أبو راس الناصري حديثه عن سكان مدينة تلمسان، قديمهم وحديثهم، إلى أن يُظهر حزنه وألمه وحسرته على ما آلت إليه هذه المدينة من تغيّر مع مرور الزمن. "وها أنا أذكر نبذة في مدحها، نظرا الى ما كانت عليه في سالف الأزمان، وأما الآن فهي كأمس الدابر، والميت القابر، قد استولى على اكثرها الخراب، وناح على خاوي عروشها الغراب، فأقول: تلمسان وما أدراك بتلمسان، فبقعة الظل الأبرد، ونسيجة، المنوال المفرد، وكناش الغيد الخرد، وكرسي الامارة، وبحر العمارة، ومهوى هوى الغيث الهتون (...) إن أتوا الزمان على الهرم، فأهل الأندلس أتوه وهو في السياق، وما أحسن ما قيل: «يأتي تلمسان! اصبري

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص100.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص107، 108.

على كمد الزمان وكدّه، وقلب مِجَنَّة، وذهاب رفده، فعسى الله أن يأتي بالفتح وأمر من عنده»"[1].

وفي ختام هذا العنصر، يتضح أن تنقلات أبو راس الناصري داخل الوطن الجزائري لم تكن مجرد انتقال عابر بين المدن، بل ارتبطت أساسًا بهدف علمي واضح، تمثل في طلب المعرفة والتواصل مع أهلها. فقد حرص على زيارة عدد من الحواضر العلمية، ولقاء من بها من أهل العلم، كما نقل ما دار بينه وبينهم من نقاشات ومراجعات، وهو ما أسهم في إثراء تجربته الفكرية. وبذلك، يمكن القول إن رحلته داخل المجال الجزائري شكلت مرحلة مهمة في مسيرته، ومهدت لما سيأتي بعدها من تنقلات خارج الوطن، مما يعكس استمرارية سعيه في طلب العلم.

### 2- *الرحلة خارج الوطن:*

وبعد تنقلاته داخل الوطن الجزائري، شدّ أبو راس الناصري رحاله نحو خارج البلاد، حيث تتوسع رحلته لتشمل مناطق أخرى، فيواصل مسيرته متنقلًا بين عدد من الحواضر، باحثًا عن العلم ومواصلة لقاءاته مع أهل المعرفة. ومن خلال هذه التنقلات، يظهر حرصه على الاستفادة وتوسيع رصيده العلمي، مما يعكس الطابع العلمي الذي يميز رحلته، حيث تمتد خارج الوطن، انطلاقًا من **بلاد المغرب**، وعلى وجه الخصوص **مدينة فاس**، وعليه يقول في هذا الإطار: " ورحلت إلى **مدينة فاس**، محل العلم والإيناس والتقريب والتبعيد لأناس، وهي قبة الإسلام والسلم والاستلام، المقام الأعلى والمثابة الفضلى، فهي أم قرى المغرب الوافرة، وخزائن المزائر والشهرة الساحرة، والأنباء المسافرة، ذات الأرجاء الدانية والقاصية، والأطواد الراسخة الراسية، والمباني الباهية، والأزهار الزاهية، والمحاسن الشاهية، حيثُ هالةُ بدر السماء دارًا، قد استدارت على البناء دارًا، والنهرُ الفيّاضُ علاها وسطًا وجارًا، وذلك الدولابُ المعتدلُ الانقلاب، قد استقام مدارًا، ينبعُ العلمُ من صدورِ أهلِ العرفان، كنبعِ مائها من الجدران، حفظًا واذكارًا، حيثُ الطودُ كالتاجِ يزدانِ بلُجَين العذب المجاج، فبرز بتاج

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص108.

كسرى ودارًا، حيثُ قصرُ الجسورِ المديدةِ، كأنها عوجُ المطِي العديدة، تعبر أنهاره قطارًا، حيثُ هي آثارُ السلطان إدريس المجاهد، تعبق من تلك المعاهد، شذًا معطارًا، حيثُ كرائمُ السحائبِ، تزورُ عرائسَ الرياضِ الحبائب، فتحملُ لها من الدر نثارا ..."[1]، فنلاحظ من خلال هذا الوصف لمدينة فاس أن الكاتب يبرز مكانتها العلمية والحضارية، حيث يصوّرها على أنها مركز للعلم والدين، ويبالغ في إبراز جمالها ومحاسنها، من خلال استعمال ألفاظ وصفية متعددة تعكس قيمتها التاريخية والثقافية، مما يدل على إعجابه الشديد بهذه المدينة ومكانتها المتميزة في العالم الإسلامي.

ثم **يشير إلى لقائه بعلمائها**، حيث يقول: "ولما لقيت علماءها، وعرفني فقهاؤها، وقالوا: يا أهلا يا أهلا ومرحبا وسهلا، طلب مني **أحد علمائها الكبار**، الحامين للذّمار، استعارة درة الحواشي، على شرح الشيخ الخراشي، فأبيت، ولا أدري بأي شيء ابتليت، ولما ألح بالمقالة، ولا يسعف بالإقالة، أعرته إياها، وقلت له: بل هي في حقي قليلة، فعين الرضى عن كل عيب كليلة، فأتى إلى نقلي فيها عن كلام الحطّاب، ولم يتأن للحن أو نحو خطاب، فنسخ وسلخ ومسخ، حتى تركه ابيا، وهجره مليا، وصيّره نسيا منسيا، فجدّدت كدّ القريحة، وتبعت الفكر المستريحة، وأعطيت نظر حقه، وأمطيت اليراع رقه، وقد استنّ هو ومن وافقه ذلك المستنّ، وما علموا أني لست ممن يقعقع له بالشّن، فاحصرت الانقال، وحللت ما أغمره من الاعتقال بالفعل والقوة، ونقذت ما عقده: عروة. وقد اسود بذلك الإعتراض في طرة الحاشية وأظهر فيها العوار، وما أحسن قول الإمام القابسي: **'أحقّ الخيل بالركض المعاري'**، (...)، وتكلمت مع **أديب فاس وعالمها وعاملها**، وأحد رؤسائها وأكابرها، **الشيخ حمدون** الذي تعقل من علوم من عروة الوثقى، وسمى به الأدب إلى المحل الأرقى، وتبادر الفقهاء والأعيان ركضا إلى المنافسة في قربهم وسبقا، ابتغاء ما عند الله 'وما عند الله خير وأبقى'[2]، واغتباطا بالعلم الذي من الظفر به أحرز الفخر حقا (...)، **ولقيت**: نحويّ فاس، باتفاق الناس، السر المصون، **الشيخ عبد القادر بن شقرون** (...) وقد كتب لي مكتوبا هو عندي الآن يمدح به شرحي الكبير على المقامات (...)،**ولقيت** الفقيه النبيه الأنيس، **الشيخ محمد**

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص101.

[2] اقتباس من سورة القصص، الآية 60، وسورة الشورى، الآية 36.

**بن بنيس**، عالم زاهد صالح ناصح من الصالحين والعابد والزاهدين، عظيم الحفظ معروف بجودة النظرة وثقوب الفهم، ذو جلالة وطلاوة وحلاوة وفصاحة وملاحة. بحثت معه في تفسير ابن عطية، وعما قليل اخترمته المنية، **ولقيت الفقيه الهواري**، فوجدته في النظم والنثر كسيل جار، وكذا **الزروالي**، صاحب المعالي، يدرس بحضرة الجماهير ولا يبالي له لفظ كأنه نظم لآلي، فقلت له يم ختم المختصر، وأنا على قدم السفر: كيف قرأت توافق الخنثي؟ فخجل، وقال: والله لا أدري ما قلت فيه. قلت: وما تقول فيه الآن؟ فقال: لا أدري، فعرفته به نظما ونثرا، فعرف حقي، وصار كأنه رّقي، لتواضعه وذلك شأن العلماء، **ولقيت ابن منصور**، فكأنه في نحو ابن هاشم أسد هصور"[1].

ويواصل أبو راس الناصري حديثه عن أنشطته العلمية والأدبية في فاس، حيث يستمر في حضور المجالس ولقاء أهل العلم، والتفاعل معهم من خلال النقاش والمراجعة، إلى أن يصل في الأخير إلى مجلس السلطان، في مسار يبين مكانته واهتمامه بطلب العلم. ويظهر ذلك في قوله: "السلطان الخليفة الجليل الأثيل الأصيل النبيل الأعلى الأجلى الأظهر الأبهر الأرضى الأمضى الأحفل الأكمل، الذي إن عُقدت إمامته انعقاد الدر والجمان، أمير المؤمنين مولانا سليمان، أبقاه الله بركةً وأمنًا وأمانًا، لا يخص جلب الخير إليه وقتٌ ولا يفتر زمانًا، مؤيَّدًا مُعانًا، وله قُومات شديدة وعزمات سديدة، وكان مجلسه نصره الله لا يخلو من العلم والعلماء، تعليمًا وتعلّمًا"[2].

وفي ختام هذه المرحلة من الرحلة، يتضح أن تنقلات أبو راس الناصري خارج الوطن، خاصة بمدينة فاس وما صاحبها من حضور مجلس السلطان، قد شكّلت محطة مهمة في مسيرته العلمية. غير أنه لم يلبث أن **عاد إلى الوطن الجزائري**، حيث استأنف تنقلاته، لا سيما بمدينة تلمسان كما سبق ذكره، ليواصل رحلته من جديد نحو وجهة أخرى، حيث تمتد به تنقلاته هذه المرة إلى **تونس**، في إطار سعيه المتواصل لطلب العلم، ومواصلة لقاءاته مع أهل المعرفة، والتعرف على ما تزخر به هذه البلاد من حياة علمية وثقافية. ونلمس هذا من قوله: "ثم ذهبت إلى **تونس أم البلاد**، ومثوى الطارق والتلاد، هي التي على عمل،

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص102، 105، 106.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص106.

أهلها في القديم بهذا الاقليم كان العمل، والكرسي الذي بعصاه ترعى الهمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمل، ذات المناهي والمبادي، يقضي منها نفثه العاكف والبادي، والرائح والغادي، خفقت به ريح الخلافة في القرن السابع في كل الأقطار والأركان، وما كان مهبه إلا في ذلك الايوان، بلا شك ولا مين، حتى جاءته بيعة أهل بيعة الحرمين، بإنشاء ابن سبعين سنة تسع وستين. **واجتمعت بعلمائها** واجلة فقهائها، ونزلت على شيخها ومفتيها الذي لا شيء من نصوص الفتاوى بمحجوب، **الشيخ السيد محمد بن المحجوب**، ذي العلم الغزير، والرأي الأثير، والعزم والحزم، والجد الساعي إلى مساعي الأب والجد، سمعت أهل تونس يقولون في ابيه: إنه مالك الأصغر (...) **وجلوسه مع الشيخ السيد صالح الكواش**، العلامة الفهامة، الذي كل المعقول والأصول من حفظه وفهمه، ولبه لم تجد له في عصره مماثل، ولا في قطره ولا غير قطره معادل (...) **واجتماعه مع عالم الدنيا** على الاطلاق، وأديبها بالاتفاق، الزاهد الناسك، الحافظ الدراك(...) أخونا **السيد ابراهيم الرياحي**، معارض الحريري في المقامات(...) **واجتماعه بكبار العلماء** بجامع تونس الأعظم، فتذاكرنا، وتناظرنا، وترافعنا، وتشاجرنا، وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة، والمسائل المخفية، وقد أظهرني الله عليهم في ذلك كله (...) ثم **بعث السيد حمودة باشا في أمره**، فذهبت اليه مسرعا من غير وهلة بعد المفاوضة والمباحثة الشديدة، ولما رآني فرح بي، وأجلسني وأكرمني، برد الله ضريحه(...)"[1].

وفي نهاية هذه المرحلة من مساره، يتبيّن أن إقامة أبو راس الناصري بتونس كانت محطة بارزة في رحلته العلمية، واصل من خلالها طلب العلم والتواصل مع أهل المعرفة. غير أنه لم يقف عند هذه المحطة، بل استمر في تنقلاته متجهًا نحو المشرق، لتكون مصر وجهته التالية، في امتداد طبيعي لرحلة علمية واسعة تجمع بين المغرب والمشرق بحثًا عن المعرفة وتحصيل العلم.

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص108، 109، 110، 115.

وهنا نبدأ بتتبع **رحلته نحو المشرق**، بعد أن عزّز رصيده المعرفي من خلال تنقلاته في بلاد المغرب العربي، حيث شكّلت تلك المحطات رصيدًا علميًا مهمًا مهد له الطريق لمواصلة مسيرته نحو آفاق أوسع من المعرفة والرحلة.

**وكانت رحلته إلى مصر** عبر البحر، ويقول في هذا: " ثم ركبتُ البحر إلى مصر، البلد الذي ليس لعمر ولا لزيد، والفرا الذي في جوفه كل الصيد، استقلّ به كرسي خلافة الإسلام، وأعار بالرَّصافة والحبس ومدينة السلام، وما عسى أن تُطنِب في وصفه ألسنة الأقلام، وتعبر عن كماله فنون الكلام، ودخلتُ بناءها المبهت المنجب، وخارجها المنبت، فحمدتُ الرؤوف المنزل، ذا العطايا المُجْزِل، حتى صار: قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلٍ عنا بمعزل، ذا العمارة الهامية، كأمواج البحور الطامية، ذا العلوم الزاهرة بالأزهر، والعساكر القاهرة بالقلعة، والمزهر والفسطاط، ومشهد الإمام، وجامع ابن طولون، والأهرام، والحسنين الشرفاء الحنفاء، والملوك والخلفاء"[1].

ومن خلال هذا الوصف الدقيق لمدينة القاهرة وما تزخر به من معالم حضارية وعلمية، يبرز إعجاب أبو راس الناصري بهذه المدينة العريقة، حيث وقف عند مختلف جوانبها العلمية والدينية والتاريخية، مما يعكس انبهاره بها وشدة تأثره بما شاهده فيها من مظاهر العمران والعلوم.

ومن بعدها شرع في الحديث عن **لقاءاته بعلماء مصر**، ونلتمس هذا في قوله: "لقيت بها **العلماء الكبار**، أهل العلم والأدب والأخبار: الامام الأرضي، الجهيبذ الأمضي، سيف الله المنتضي، **شيخنا السيد مرتضي**، ففاوضته في فنون، فوجدته كما لي فيه من الظنون(...) وأما **العلامة الشرقاوي** فلقبني في اجازته ب 'شيخ الإسلام'، أسكن الله الجميع دار السلام. وقرأت عليه من مذهب الشافعي رضي الله عنه، فما رأيت أبرك من لقائه ولا أحسن من القائه. ثم إني قرأت مذهب الامام أحمد بن حنبل، الذي جمع بين العلم والعمل، على شيخنا **الشيخ عصمان الحنبلي**، ذي العلم والصيت الجلي(...) ثم ذكر **لقائه بعلماء مصر في الجامع الأعظم**، حيث أنه أثبت من خلال إجابته عن أسئلتهم أنه جدير **بلقب الحافظ**"[2].

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص115.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص115، 116، 117.

وفي ختام هذه المرحلة من رحلته، تبدو مصر عند أبو راس الناصري من أهم المحطات التي وقف عندها، لما شاهده فيها من مظاهر العلم والعمران وكثرة العلماء والمعالم الدينية والتاريخية، وهو ما جعله يطيل في وصفها والتعبير عن إعجابه بها. كما أتاحت له هذه الرحلة توسيع معارفه والاحتكاك بأهل العلم، الأمر الذي أسهم في إثراء تجربته العلمية والأدبية، وجعل من رحلته إلى مصر محطة بارزة ضمن مساره الرحلي.

ومن ثمّ تتواصل رحلة أبو راس الناصري نحو مناطق أخرى، ليصل **إلى ينبوع البحر بالمملكة العربية السعودية**، حيث يواصل سرد مشاهداته وتنقلاته ضمن رحلته نحو المشرق، يقول في ذلك: "ثم **رحلت إلى ينبوع البحر**، مأوى الغريب والإيلاف، _كعادته متجها نحو الشيوخ للأخذ من معارفهم_ فقصد **الشيخ عمارة العلاف**، من أعظم ما لقي به قدرا، وأرفعهم خطرا، وأشرفهم ذكرا، أحد الأئمة الأكابر، فارس المنابر، امام الأئمة وقدوة الأمة(...) رويت عنه بعض صحيح البخاري، وأجازني بالباقي، نجاني الله واياه يوم التلاقي"[1].

ثم **رحل إلى أم القرى**، أول بيت وضع للناس **مكة المكرمة**، فيصفها بلسانه: "ذات المكارم والعلى والعرى، التي لا بغيرها تقاس، درّة السلك النضيد، وبيت المعاني اليه القصيد، ذات النعم المفعمة السجال، وميدان السعادة الرحب المجال، وأغراض الإسلام مقابلة بالابتدار لتوفيتها والاستعجال، والخوارق العجيبة مخيلات في الرؤية والارتجال، ذات المقر الأشرف الذي فضل المحال الدينية محله، وكثر في بئر زمزم مقيض إسماعيل، عليه السلام لمغله وعله وطابت أرجاؤه لما استمد من ريحانتي الجنة أصلها، فوقها البيت المعمور التي بالمكارم عدت، والأرض من تحتها مدت، ثم **اجتمع بعلمائها وفقهائها**: كعلامة الدارك السيد عبد المالك، الحنفي المفتي الشامي القلعي، والسيد عبد الغني، وطالت مجالسته وبحثه مع الفقيه السيد الحسين المعربي، وغير ذلك، مما ضمّه مسجد مكة المشرفة(...) واجتمع مع الشيخ السيد عبد الرحمن التادلي المغربي، له الباع الواسع في طريق القوم واللغة، ذو الفضل وتخلق، وتواضع، وحسن الخلق، وجميل عشرة"[2].

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص118.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص118.

ثم **ذهب لأداء مناسك الحج** سنة 1226هـ/1811م[1]، ولقي بها **علماء الوهابية** وهم "تسعة علماء أكابر جماهير وأفضلهم، الشيخ علي تاسعهم فوقع له معهم مناظرة ومباحثة واعتراضات، وسؤالات، وأجوبة فائقات، ودلائل قاطعات، وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة من الأمهات(...) **ثم قصد الطيبة**، بعد هذه الغيبة، وملء العيبة، وهي **المدينة المشرفة** على من تشرفت به أفضل الصلاة والسلام، فيا حبذا بمهبط الوحي ونزول جبريل عليه السلام، وتشريع الأحكام، من حلال وحرام(...) **ولقائه بعلماء أجلاء** من كل مصر وقطر. فزاروا ضريح النبي صلى الله عليه وسلم، وضريحي صاحبيه أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، ثم أخذوا الطريق إلى البقيع وغيرها من المناطق لزيارة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وجرى له مع العلماء أبحاث ومناظرات غير مرات، معظمين ما عظم الله من دار هجرته، ومطلع بدره في ضريحه وقبره، لا تتعدى عليه صلى الله عليه وسلم، أرض، لا كل، ولا بعض، وكذا كل الأنبياء صلى الله عليهم وسلم"[2].

**وفي ختام هذه المرحلة من الرحلة**، نلاحظ أن زيارة أبو راس الناصري لمكة المكرمة والمدينة الطيبة لم تقتصر على الجانب الديني فقط، بل حملت أبعادًا روحية وعلمية واضحة، حيث عبّر من خلالها عن شدة تأثره بتلك البقاع المقدسة، خاصة عند زيارته لقبر النبي صلى الله عليه وسلم. كما تعكس هذه المحطة مكانة الرحلة الحجازية في نفسه، لما ارتبط بها من مشاعر الخشوع والتقدير، إلى جانب حرصه الدائم، حتى في رحلته الدينية، على طلب العلم والأخذ عن الشيوخ والعلماء، مما يبرز ارتباط الجانب الديني بالجانب العلمي في مختلف مراحل رحلته.

وبعد انتهائه من رحلته الحجازية وما حملته من أبعاد دينية وعلمية، يواصل أبو راس الناصري تنقلاته **نحو بلاد الشام**، مواصلًا رحلته في طلب العلم والتعرف على مختلف الحواضر والمجالس العلمية، فيقول في هذا الصدد: "رحلت إلى الشام، فتكلمت مع علمائها في مسألة من الحبس، نصّ عليها الشيخ أبو زكرياء ابن الحطّاب رحمه الله، فطال بحثنا فيها جدا. ثم انهم رجعوا لقولي، ووفقوني، وأنصفوني بعد الدلائل القاطعة والأجوبة الرائقة

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص130،

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص118، 119.

والمباحث الفائقة، وذلك شأن العلماء، ولما أردت السفر جمعوا لي دراهم كثيرة، وزادا قدر الكفاية فخرجت، وودعوني، وشيعوني"[1].

كان هدف أبو راس الناصري من رحلته نحو **بلاد الشام** مرتبطًا أساسًا بحضور **الحلقات العلمية** والاتصال بأهل المعرفة، حيث حرص على الاستفادة من مجالسهم ومناقشاتهم العلمية. كما تكشف هذه الرحلة عن مكانته العلمية وقدرته على الحوار والإقناع، من خلال ما كان يجريه من مراجعات ومناقشات مع علماء تلك البلاد، الأمر الذي أسهم في توسيع رصيده الفكري والمعرفي.

ويواصل أبو راس الناصري تنقلاته **نحو فلسطين**، حيث يحط **بمدينة الرملة**، فيدخل في مناقشات ومفاوضات علمية مع بعض علمائها حول جملة من المسائل. ونلتمسه في قوله: " ثم دخلت الرملة التي هي أحد مدن فلسطين، ولقيت علماءها فتفاوضنا زمانا في الدخان والقهوة، فأجبتهم بما قال العلماء في ذلك، وذكرت لهم نص أبي السعود فيهما معا، فأكرموني –**ثم يتجه بعد ذلك إلى غزة**، أين قام بزيارة قبر الهاشم، كما واصل لقاءاته بأهل العلم والأخذ عنهم. فيقول: "ثم **رحلت إلى غزة** فزرنا قبر سيدنا الهاشم: ثالث آباء النبي صلى الله عليه وسلم، ولقيت علماءها وأمراءها، فضيفوني، وأكرموني، وتناظرنا في مسائل من العلم مختلفات برهة من الزمن، فاعترفوا لي بالفضل والعلم والحفظ. وتلك المدينة كانوا يقولون لها: غزة الهاشم، كما في سعر أبي نواس، حيث قال:

{طوالب بالركبان} {غزة هاشم}

وهي بفتح الزاي المعجمة، _**غير أنه عند وصوله إلى العريش** لم يطل الحديث عنها، ويبدو أن ذلك راجع إلى عدم عثوره على من يؤانسه من العلماء أو يشاركه اهتمامه العلمي_ ثم رحلت إلى العريش، فلم أجد بها عالما آنس إليه، ويكون التعويل عليه"[2].

تجلت الرحلة العلمية والأدبية عند أبو راس الناصري في سعة معارفه الدينية وكثرة مناظراته ومناقشاته مع العلماء حول مختلف القضايا التي كانت تُطرح في المجالس العلمية، حيث كان يوظف الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث والفقه والمذاهب والتصوف والأدب.

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص119، 120.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص120.

***المبحث الثالث:*** الأبعاد الفكرية والأدبية لرحلة:

تُعدّ رحلة أبو راس الناصري من الرحلات التي لم تقتصر على مجرد وصف التنقلات والأماكن، بل حملت في طياتها مجموعة من الأبعاد الفكرية والأدبية التي عكست شخصية الرحالة وثقافته الواسعة. فمن خلال مختلف المحطات التي مرّ بها، ظهرت اهتماماته العلمية والدينية، من خلال حرصه على لقاء العلماء، وحضور المجالس العلمية، والدخول في مناقشات ومناظرات حول العديد من القضايا والمسائل. كما كشفت الرحلة عن جانب اجتماعي واضح، تجلّى في طريقة تعامله مع الناس ووصفه للمجتمعات والعادات التي صادفها خلال تنقلاته.

وإلى جانب ذلك، حملت الرحلة قيمة أدبية وتاريخية بارزة، لما تضمنته من وصف للأمكنة والمعالم، وتنوع في أساليب السرد والحوار والوصف، الأمر الذي جعل منها نصًا يجمع بين الفائدة العلمية والمتعة الأدبية، ويعكس في الوقت نفسه جانبًا من الواقع التاريخي والثقافي لتلك المرحلة.

**1_ *البعد الديني والعلمي:*** تجلّى البعد الديني والعلمي في رحلة أبو راس الناصري من خلال حرصه الدائم على طلب العلم والتقرب من أهله في مختلف البلدان التي زارها، حيث لم تكن رحلته مجرد تنقل بين الأمصار، بل كانت وسيلة لاكتساب المعرفة والاستفادة من العلماء والشيوخ. وقد ظهر ذلك من خلال حضوره للمجالس العلمية، ودخوله في مناقشات ومناظرات حول عدد من القضايا الدينية والعلمية.

***أولا:*** البعد الديني:

من خلال قراءة كتاب "فتح الإله"، يمكن للمتأمل أن يلمس في شخصية أبو راس الناصري مدى تعلقه المبكر بطلب العلم، حيث برز شغفه بحفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظافره، وهذا ما يدل في قوله: "فقرأت القرآن في حال صغري، ثم قرأت أحكام القرآن، وحفظتها على ظهر قلبي"[1]. إضافة إلى نشأته على حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والأخذ بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، **إضافة إلى انتسابه** إلى سلالة النبي صلى الله عليه وسلم،

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص19.

فيقول في هذا: "وأن هذا النسب متصل إلى عمرو بن أدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم"[1]، وهذا ما يعكس تكوينه الديني العميق الذي رافقه منذ بداياته الأولى، وأسهم في تشكيل شخصيته الروحية والدينية لاحقًا.

وقد برز في رحلة أبو راس الناصري كثرة **الاستشهاد بالآيات القرآنية والاقتباس** منها في مختلف مواقفه وأحاديثه، حيث كان يوظفها للتعبير عن أفكاره وربط الأحداث بالجانب الديني، مما يعكس مدى تأثره بالقرآن الكريم وقوة حضوره في رحلته. ونلمس ذلك من خلال أقواله المتعددة التي اعتمد فيها على الآيات القرآنية أثناء وصفه لبعض المواقف والأماكن والأحداث التي صادفها خلال تنقلاته. **ومن توظيفه للقرآن واقتباس منه:**

_ (ورفعناه مكانا عليا) سورة مريم، الآية 57.

_ (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) سورة الفتح، الآية 01 .

_ (وما أبريء نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء، إلا من رحم ربي) سورة يوسف، الآية 53.

_ (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا) سورة المائدة، الآية 32 .

_ هادم الكنائس والبيع "فهي خاوية على عروشها" اقتباس من سورة الحج، الآية 45.

_ فترى الغصون "سكرى وماهم بسكارى" اقتباس من سورة الحجم، الآية 02.

_ فهي للعيون ثماد، مثل "إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد" اقتباس من سورة الفجر، الآية 07 .

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص25.

_ ابتغاء ما عند الله "وما عند الله خير وأبقى" اقتباس من سورة القصص، الآية 60. وسورة الشورى، الآية 36.

وهذا ما هو إلا قليل من كثير، إذ كان أبو راس الناصري كثير الاستشهاد بكلام الله في مختلف مواقفه وأحاديثه، وهو أمر يعكس أثر التربية الدينية التي نشأ عليها منذ صغره وتعلقه المبكر بالقرآن الكريم.

كما ظهر تأثر أبو راس الناصري **بالحديث النبوي الشريف** من خلال اعتماده عليه في العديد من المواضع أثناء رحلته، إذ كان يستحضر الأحاديث النبوية لتدعيم أفكاره وربط بعض المواقف بالجانب الديني، وهو ما يعكس تعلقه بالسنة النبوية وارتباطها الواضح بخطابه الرحلي والديني. **نلتمس هذا من خلال مواضيع التي ناقشها من بينها:**

_ **مسألة قول صحة،** فيقول: "روى الحاكم والدارقطني عن أم أيمن أنها قالت: «قام رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ من الليل إلى فخارة في جنب البيت، فبال بها وتركها، فقمت وأنا عطشانة فشربت ما فيها، وأنا لا أشعر، فلما أصبح قال :يَا أُمَّ أيْمُن! قومِي فَاهرقِي مَا فِي تلك الْفخّارة»، فقلت: شربت ما فيها، فضحك، ثم قال «وَالله لَا يَجُوعَنَّ بَطْنُكِ أبَدا». وعن عبد الرزاق بن جريح أنها اسمها بركة، كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من الحبشة إلى آخر كلامه، فقال لها: صحة يا أم أيمن"[1].

_ **رحمة الله الواسعة،** فيقول: "ففي الحديث النبوي الشريف، من هم بسيئة فلم يعملها كتبت عليه حسنة، فإن عملها كتبت عليه سيئة"[2].

_ **مناظراته مع الشيوخ،** ونلتمس هذا في قوله: "ثم أن الشيخ الطيب بن كيران، ناظرته في قوله صلى الله عليه وسلم: حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة"[3].

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص103.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص93.

[3] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص104.

كما يتجلى الطابع الديني في رحلة أبو راس الناصري من خلال توظيفه المتكرر **للأدعية والعبارات الدينية** أثناء السرد، حيث كان يستحضرها في مختلف مواقفه للتعبير عن مشاعره وربط الأحداث بالجانب الروحي. وهو ما يعكس حضور البعد الديني في أسلوبه الرحلي، إذ لم يكن يكتفي بوصف الوقائع فقط، بل يضفي عليها طابعًا إيمانيًا يعكس ثقافته الدينية وارتباطه القوي بالقيم الإسلامية، ونرى هذا من خلال أقواله:

_ اللهم يا قدوس، يا سلام، أدخلنا دار السلام واخرجنا من الدنيا بسلام[1].

_ نصره الله.

_ أطال الله في العلم بقاءكم.

_ أخلص الله جهاده.

_ رضي الله عنهم، وأرضاهم عنا وعن ذريتنا آمين.

_ أبقاه الله بركة وأمنا وأمانا.

ومن مظاهر البعد الديني في رحلة أبو راس الناصري حرصه الدائم على **لقاء الشيوخ وأهل الدين** خلال تنقلاته، إذ كان يجد في مجالستهم نوعًا من الأنس الروحي والتقرب إلى أهل الصلاح، وهو ما يدل على تعلقه بالبيئة الدينية وتأثره بأهلها. ودليل على ذلك أنه منذ بداية رحلته كان يحرص على ذكر لقاءاته بالشيوخ وأهل الدين في مختلف البلدان التي زارها، الأمر الذي جعل هذا الجانب حاضرًا في مختلف مراحل الرحلة. وأمثلة على ذلك:

_ أول رحلتي للجزائر...لقيت بها الفقيه المسمى الشيخ القاضي. (ص91).

_ ولما دخلت قسمطينة نزلت على محط رحال...العلامة الشيخ سيدي محمد. (ص98).

_ رحلت الى مدينة فاس...وشيخهم حافظ العصر السيد السند الطيب بن كيران...العالم الصالح الزاهد. (ص101، 102).

وفي سياق حديثه **عن مكة المكرمة والمدينة المنورة**، يبرز الجانب الروحي في رحلة أبو راس الناصري، حيث تجلت مشاعره الدينية العميقة عند زيارته للأماكن المقدسة وما ارتبط بها من أجواء إيمانية مفعمة بالخشوع والتأثر، خاصة عند وقوفه في المدينة المنورة وزيارة

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص98.

قبر النبي صلى الله عليه وسلم. ولا يمكن إغفال منبع هذه الرحلة، إذ كانت الرحلة إلى الحجاز من أبرز دوافعه وأهدافه، حيث التمس فيها معاني التدين وطلب القرب من الله، فكانت محطة روحية بارزة ظهر فيها ما يمكن تسميته بنسيم التدين الذي رافق تجربته الرحلية.

**فعند وصفه لمكة المكرمة يقول:** "أم القرى، ذات المكارم العلى والعرى، التي لا بغيرها تقاس، لأنها أول بيت وضع للناس، درة السلك النضيد، وبيت المعاني القصيد، ذات النعم المفعمة السجال، وميدان السعادة الرحب المجال(...) فوقها البيت المعمور التي بالمكارم عدت، والأرض من تحتها مدت(...) وغير ذلك مما ضمه مسجد مكة المشرفة، مأوى الرائح والغادي، الذي قال فيه سواء العاكف فيه والبادي، والقبة العظمى للإسلام، ومبدأ الوحي من الملك العلام، ومنها كان الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم، الحرم الأمين(...) وأدائه لمناسك الحج سنة ست وعشرين"[1].

**أما عند وصفه للمدينة المنورة، فيقول في هذا الإطار:** "ثم رحلت إلى **الطيبة**، بعد هذه الغيبة، وملء العيبة، وهي **المدينة المشرفة** على من تشرفت به أفضل الصلاة والسلام، فيا حبذا بمهبط الوحي ونزول جبريل عليه السلام، وتشريع الأحكام، من حلال وحرام، ونعم المهاد، ومبعث الجيوش والسرايا للجهاد، وضريح سيد المرسلين والكونين والثقلين والفرقين: من عرب ومن عجم. ولقيت علماء أجلاء من كل مصر وقطر. فزاروا ضريح النبي صلى الله عليه وسلم، وضريحي صاحبيه أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، وزاروا الصحابة بالبقيع رضي الله عنهم أجمعين"[2].

**ومن خلال مختلف هذه المظاهر**، يتبين أن البعد الديني شكّل جانبًا بارزًا في رحلة أبو راس الناصري، حيث ارتبطت تنقلاته بروح إيمانية واضحة ظهرت في تعلقه بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وحرصه على لقاء الشيوخ وأهل الدين، إلى جانب تأثره الكبير بالأماكن المقدسة خلال رحلته إلى الحجاز. كما عكست أقواله ومواقفه حضورًا دينيًا واضحًا

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص118.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص119.

رافقه في مختلف مراحل الرحلة، الأمر الذي جعل هذا الجانب حاضرًا بقوة في أسلوبه الرحلي وفي نظرته إلى الأحداث والأماكن التي مرّ بها.

***ثانيا:*** البعد العلمي:

لم يقتصر أبو راس الناصري في رحلته على الجانب الديني فقط، بل برز البعد العلمي فيها بشكل واضح، إذ كانت رحلته قائمة على طلب العلم والتزود بالمعارف من مختلف الشيوخ والعلماء الذين التقاهم خلال تنقلاته بين البلدان. فقد حرص على حضور المجالس العلمية والدخول في مناقشات ومناظرات حول العديد من القضايا والمسائل، الأمر الذي يعكس سعة اطلاعه ورغبته الدائمة في الاستفادة واكتساب المعرفة. كما تجلى هذا البعد أيضًا في كثرة لقاءاته بالعلماء، وحصوله على عدد من الإجازات العلمية التي تعكس مكانته العلمية وتقدير أهل العلم له، وهو ما جعل الرحلة تتجاوز مجرد التنقل ووصف الأمكنة، لتصبح فضاءً علميًا حافلًا بالمجالس والمناظرات وتبادل المعارف، حيث يتجسد هذا من خلال:

_ **حرصه على طلب العلم**، حيث لم يكن البعد العلمي مختلفًا عن البعد الديني، بل ارتبطا بعلاقة تكاملية واضحة، فكما ذُكر سابقًا أن أبو راس الناصري حفظ القرآن الكريم منذ صغره، **فإن القرآن في حد ذاته يُعد منبعًا للعلم والمعرفة**، الأمر الذي جعله يتجه إلى **تعلم الأحكام** الشرعية ومختلف العلوم **الدينية، منذ بداياته الأولى.**

_ **كثرة لقاءاته بالعلماء والشيوخ**، القارئ لكتاب "فتح الإله ومنته"، يرى بوضوح شديد أن أبو راس كان كثير لقاءات مع العلماء والشيوخ في مختلف البلدان التي زارها، حيث كان يحرص على مجالستهم والأخذ عنهم قصد توسيع معارفه وتكوين رصيده العلمي. فقد خصص الباب الثاني الذي سماه "في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي: شريعة، وحقيقة، وقرآنا، وطريقة"[1]. حيث يوضح فيه ما دار بينهم من مناقشات ومجالس علمية، ويظهر ذلك من تكرار لفظة **لقيت**، فكلما يحط في بلد يقول لقيت العالم فلان، الشيخ فلان، الفقيه فلان...إلخ.

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص91.

**ونذكر على سبيل مثال رحلته إلى داخل الوطن بصفة عامة:**

فيقول: "ولقيت بالجزائر فقيهها وعالمها وخطيبها ومفتيها، واسع الرحاب والأكناف، الشيخ السيد محمد بن الحفاف(...) ولما دخلت قسمطينة نزلت على محط رحال الأفاضل... السيد عبد الكريم محمد الفكون(...) وكنت مرة قصدت وهران وافدا على حضرة من ناب في مدحه لسان الحال، على لسان المقال، ذي المقام...السيد محمد باي بن عثمان، أخلص الله جهاده"[1].

**ـ حضوره للمجالس العلمية،** ومن مظاهر البعد العلمي في رحلة أبو راس الناصري اهتمامه الكبير بالمجالس العلمية التي كان يحرص على حضورها في مختلف محطاته، حيث شكّلت هذه المجالس مجالًا للقاء العلماء وتبادل الآراء والمعارف حول العديد من القضايا العلمية والدينية. كما أتاحت له فرصة الاستفادة من النقاشات والمناظرات التي كانت تدور بين أهل العلم، وهو ما يدل على تعلقه بطلب المعرفة وحرصه الدائم على تنمية رصيده العلمي خلال رحلته.

ونلمس هذا كثيرا في الباب الثالث تحت مسمى "**في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام**":

- وقد قال لي بمجلس حكمه... ص95.
- حضرت له يدرس الموطأ... ص96.
- فأمرني من الغد بالذهاب معه للجامع... ص96.
- فتذاكرنا في العلوم والفنون... ص99.
- ثم حضرت مجلس ذي الخلافة... ص106.
- وطالت مجالستي وبحثي... ص118.

ومن مظاهر البعد العلمي في رحلة أبو راس الناصري كثرة مناظراته ومناقشاته مع العلماء في مختلف القضايا العلمية واللغوية، حيث كان حريصًا على إبداء رأيه والدفاع عنه بالحجة. ومن ذلك ما حدث له أثناء توجهه إلى وهران، حين حضر مجلس السيد محمد باي بن

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص95، 98، 100.

عثمان، فانجرّ الكلام بينه وبين عالم النحو واللغة السيد محمد بن حسن حول مسألة لغوية تتعلق بقول "كلا شيء"، الأمر الذي دفعه لاحقًا إلى تأليف كتاب سماه: "**بغية المرتاد في كلا شيء وجئت بلا زاد**"[1]. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على سعة اطلاعه وشدة تعلقه بالعلم، إلى جانب قدرته على الإنتاج والتأليف في مختلف المسائل التي كانت تُطرح داخل المجالس العلمية.

ـ **الإجازات العلمية**، "تقابل الإجازة العلمية قديما، الشهادة الجامعية المتقدمة في وقتنا هذا"[2]. حيث برز البعد العلمي في رحلة أبو راس الناصري من خلال الإجازات العلمية التي تحصل عليها أثناء تنقلاته بين مختلف البلدان، حيث كانت هذه الإجازات دليلًا على مكانته بين العلماء وما حظي به من تقدير لدى الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم. وقد عكست هذه الإجازات حرصه على التلقي المباشر من أهل المعرفة، ورغبته في توسيع معارفه العلمية في مختلف العلوم التي كانت تُتداول داخل المجالس العلمية.

ذكر أبو راس عدة اجازات من بينها:

- ✓ أجازه الشيخ السيد مرتضي في عدة علوم، فروى عنه الصحيحين ورسالة القشيري، ومختصر العين ومختصر الكنز الراقي، فقال المرتضي عنه: "إني أجزت الفقيه العالم فلان"[3].
- ✓ أجازه الشيخ الأمير، فوصفه بإجازته بـ "الحافظ"... ص116.
- ✓ أجازه العلامة الشرقاوي، فلقبه بـ "شيخ الإسلام"...ص116.
- ✓ أجازه الشيخ عمارة العلاف، فروى عنه بعض صحيح البخاري...ص118.
- ✓ أجازه العلامة عبد المالك الحنفي، فقرأ عليه نبذة من الحديث ونبذة من الكنز، وشيئا من التفسير في سورة النور...ص118.

وهذا ما هو إلا غيض من فيض.

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص101.

[2] ينظر: سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، المصدر السابق، ص87.

[3] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص116.

ومن خلال ما سبق، يتبين أن البعدين الديني والعلمي كانا متلازمين في رحلة أبو راس الناصري، إذ ارتبط تعلقه بالدين بحرصه الكبير على طلب العلم والتزود بالمعرفة منذ صغره، فظهر ذلك في حفظه للقرآن الكريم واعتماده على الحديث النبوي الشريف، إلى جانب حرصه على مجالسة الشيوخ والعلماء وحضور المجالس العلمية والدخول في مختلف المناظرات والمناقشات. كما عكست رحلته إلى الحجاز وما رافقها من مظاهر روحية، إضافة إلى الإجازات العلمية التي تحصل عليها، مدى حضوره الديني والعلمي في مختلف مراحل الرحلة. وهذا ما كان سببًا في الجمع بين هذين البعدين، نظرًا لتوافقهما وتكاملهما، إذ إن كليهما يكمل الآخر ويعكس جانبًا مهمًا من شخصية الرحالة وتكوينه.

***2_ البعد الاجتماعي:*** تجلّى البعد الاجتماعي في رحلة أبو راس الناصري من خلال احتكاكه بمختلف فئات المجتمع أثناء تنقلاته بين البلدان، حيث لم تقتصر رحلته على لقاء العلماء فقط، بل شملت أيضًا تعامله مع الناس ووصفه للعادات والتقاليد التي صادفها في مختلف الأمصار. كما عكست الرحلة نظرته إلى الآخر وطريقة تفاعله مع المجتمعات التي زارها، الأمر الذي منح رحلته بعدًا اجتماعيًا واضحًا تجسد في تصويره للناس ومختلف المواقف التي عاشها خلال تنقلاته.

ونوضح هذا من خلال:

**_ مرحلة طفولته،** رغم أن أبو راس الناصري نشأ في بيئة محافظة يغلب عليها الطابع الديني، وكان والده يُعدّ شيخه الأول الذي أخذ عنه مبادئ العلم والتربية، إلا أن حياته في مرحلة الطفولة لم تخلُ من المعاناة والظروف الصعبة. وقد أورد ذلك في رحلته، خاصة في الباب الأول الذي سماه "في ابتداء أمري"، حيث ذكر وفاة أبويه وتركه طفلًا صغيرًا، الأمر الذي جعله يواجه حياة يغلب عليها الفقر والمعاناة، فيقول: "ثم إني بقيت بعد أمي في بيت أبي أنا وأخي العارف الماهر السيد عبد القادر، فأتانا أخونا الأكبر الشجاع الماجد السيد ابن عمر، فأخذنا بعد موت أبينا"[1]، حيث تعكس هذه المرحلة جانبًا اجتماعيًا من حياته،

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص19.

فيكشف لنا الظروف التي عاشها والصعوبات التي رافقته في بداياته الأولى قبل انطلاقه في رحلته وطلبه للعلم. فيقول في هذا الصدد: "وقد استمررت عشر سنينا عريانا: لا لباس لي، الا خرق كالعدم، وما لبست نعلا إلى أن قرب صومي، ولما قدرت على السعي صرت أطلب من البيوت، ثم أبيع وأكسى"[1]، وكان لكل هذه الظروف أثر واضح على نفسية أبو راس الناصري وشخصيته، إذ جعلته أكثر صبرًا وقدرة على تحمل مشاق الحياة، كما أسهمت تلك المعاناة في تشكيل نظرته إلى الحياة والناس، وهو ما انعكس لاحقًا في مختلف مراحل رحلته وأسلوبه في الحديث عن المواقف التي عاشها خلال تنقلاته.

ـ **حسن الأخلاق والعادات،** تجلّت مظاهر حسن الأخلاق والعادات في رحلة أبو راس الناصري من خلال وصفه لبعض الصفات الحميدة التي لمسها أثناء تنقلاته بين البلدان، حيث أشار إلى الكرم وحسن المعاملة وطيب أخلاق بعض الناس الذين التقاهم خلال رحلته. كما عكست مواقفه المختلفة تقديره للعادات الحسنة والقيم الاجتماعية التي تقوم على الاحترام وحسن الضيافة، الأمر الذي يكشف نظرته الإيجابية لبعض المجتمعات التي مرّ بها خلال رحلته.

ونلتمس هذا في عدة محطات من رحلته:

- حسن استقبال أهل مدينة فاس له وترحيبهم به، وهو ما يعكس ما تميز به أهل تلك المدينة من كرم وحسن معاملة وطيب أخلاق، حيث نقل بعض عبارات الترحيب التي استقبلوه بها: "يا أهلا، وأهلا، ومرحبا وسهلا"[2].
- كما أشار أبو راس الناصري في رحلته إلى المكانة التي حظي بها عند الباي حمودة باشا في تونس، حيث أبدى هذا الأخير فرحه بقدومه ورحّب به، فيقول في هذا: "فبعث الي بسرعة، فذهبت اليه من غير وهلة، ولما رآني فرح بي، وأجلسني وأكرمني"[3] وهو ما يعكس ما كان يتميز به أهل تلك البلاد من حسن المعاملة وتقدير الضيف وأهل العلم.

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص19.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص102.

[3] ينظر" محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص115.

- وبعد توجه أبو راس الناصري إلى بلاد الشام، لقي ترحيبًا كبيرًا وحفاوة واضحة من علمائها، خاصة أولئك الذين تذاكروا معه في مختلف المسائل العلمية، حيث قدّروا مكانته العلمية وأنصفوه دون حسد أو تشكيك في علمه، خلافًا لما تعرض له في بعض البلدان الأخرى مثل تونس ومصر، وهو ما سيتضح لاحقًا. ولم يقتصر إحسان أهل الشام على حسن المعاملة فقط، بل تجاوز ذلك إلى مساعدته وتقديم المال الكافي له لمواصلة رحلته، كما حرصوا على توديعه وتشييعه عند خروجه من المدينة، الأمر الذي يعكس ما اتصفوا به من كرم وحسن أخلاق[1].

ـ **صفات القبح والعادات**، كما أشار أبو راس الناصري في رحلته إلى بعض المظاهر السلبية التي صادفها خلال تنقلاته، حيث لم تخلُ بعض الأمصار من تصرفات غير محمودة وصفات مذمومة، وهو ما عكس اختلاف العادات بين البلدان التي زارها. كما سجّل ملاحظاته حول بعض السلوكيات التي لم يرضَ عنها، الأمر الذي يدل على نظرته النقدية وحرصه على نقل الصورة كما هي دون تزيين، مما أضفى على رحلته طابعًا واقعيًا يجمع بين الوصف والتقييم.

من مظاهر قبح الصفات التي ذكرها:

- أشار أبو راس الناصري إلى ما تعرض له أثناء وجوده في مصر من معاملة سيئة من طرف بعض العلماء، حيث أظهروا له الحسد بسبب حفظه وفهمه وسعة علمه، فصاروا يمتحنونه في مختلف المسائل ويحاولون السخرية منه والتقليل من شأنه. فيقول: "اجتمعت مع علماء مصر في الجامع الأعظم، وتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمة. ثم قالوا لي من لقب بـ الحافظ، لابد أنه يختص بشيء دون غيره، وأنت ما تحفظ؟ فقلت أحفظ كذا وكذا متنا من سائر العلوم، قالوا لقينا كثيرا من الناس يحفظ مثلك أو أكثر(...) فشرعوا في امتحاني، وتزييف مكانتي ومكاني، فأخرج أحدهم كتاب الألفية وفتحه من آخره، فخرج له باب التصغير، فقال لي: كم فيه من بيت؟

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص119، 120.

فقلت: فيه اثنان وعشرين، فصاحوا وضحكوا، وأرادوا تزييف نقدي، وتكذيب ما عندي..."[1].

- ونجد ذلك أيضًا عند أبو راس الناصري، فبعد أن قرّبه الباي حمودة باشا إليه وأكرمه لما عرفه فيه من علم وقوة حفظ، ظهرت فئة من العلماء أضمرت له الحسد والبغضاء، وهو ما يكشف أن التنافس على المكانة والمناصب كان سببًا في انتشار مشاعر الغيرة والحسد بينهم. فيقول في هذا: " ثم ان بعض العلماء لما سمعوا بإكرامه لي اعتراهم الحسد والكمد والمكر، وقد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، غفر الله لهم"[2].

ـ **الظواهر الاجتماعية،** ولم يهمل أبو راس الناصري في رحلته الحديث عن بعض الظواهر الاجتماعية التي عاشها وشاهد آثارها في بلاده، خاصة في مناطق الغرب الجزائري خلال أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، حيث عرفت تلك الفترة اضطرابات وفتنًا كثيرة أثرت على حياة الناس واستقرارهم.

***ومن أبرز ما أشار إليه:***

- فتنة "درقاوة"[3] التي قامت ضد السلطة العثمانية في الجهة الغربية من البلاد، وهي فتنة خلفت حالة من الخوف وعدم الاستقرار بين السكان. ولم تتوقف معاناة الناس عند هذا الحد، بل زادت سوءًا بسبب انتشار الأمراض والأوبئة والمجاعات التي أنهكت الأهالي وأدت إلى كثرة الخراب وقلة الأمن، حتى وصف تلك المرحلة بأنها من أشد الفترات قسوة وسوادًا في حياته. وقد عكست هذه الأحداث جانبًا اجتماعيًا مهمًا في الرحلة، إذ نقل من خلالها صورة واقعية لما كان يعيشه المجتمع من معاناة وظروف صعبة آنذاك. حيث يقول في هذه المعاناة: "ثم غمتنا فتنة درقاوة، وأنا لم نكن فيها، كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج بن يوسف: (وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء برزة، ولا أقوياء

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص117.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص115.

[3] الطائفة الدرقاوية، نسبة إلى مؤسس طريقتهم أبي عبد الله محمد العربي بن أحمد الدرقاوي المغربي، المصدر نفسه، ص37.

فجرة)، مع ما دهمنا من الطاعون، الذي تهرب منه الواعون، فاتصلت علينا صراصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع، الذي في فؤاد مودوع"[1].

- كما تحدث أبو راس الناصري عن الحروب التي عرفتها سواحل وهران بين المسلمين والنصارى، وهي الأحداث التي انتهت بانتصار المسلمين، غير أنها خلفت آثارًا مأساوية على أهل المنطقة بسبب كثرة الضحايا والخسائر التي مست السكان، الأمر الذي يعكس حالة الاضطراب والمعاناة التي عاشها المجتمع في تلك الفترة. حيث قال في هذا: "معركة عظيمة بين المسلمين والنصارى 'وهران'، فكان بينهما حرب لم تنسج الأزمان على منوالها ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة أهوالها من قاسها 'بحرب انفجار'، أفك وفجر، ومن شبهها 'بحرب داحس' و 'الغبراء'، فما عرف الخبر(...) انما كان مقاما غير معتاد، ومرعى لنفوس لم يف بوصفه لسان مرتاد، وزلزال جبال أوتاد(...) واتحدت جداول الدروع فصارت بحرا، فلا ترى إلا نحرا يلازم نحرا، وعناق وداع، وموقف ذي انصداع، واجابة مناد إلى فراق الأبد وداع"[2].

ومن خلال ما سبق، يتبين أن أبو راس الناصري لم يقتصر في رحلته على ذكر تنقلاته فقط، بل نقل أيضًا مختلف الأحوال الاجتماعية التي عايشها، سواء ما تعلق بحسن أخلاق بعض الناس وكرمهم، أو بعض الصفات السلبية والحروب والاضطرابات التي شهدها المجتمع آنذاك، وهو ما جعل رحلته تعكس صورة اجتماعية واضحة عن تلك الفترة.

### 3_ القيمة الأدبية والتاريخية لرحلة:

تتميز رحلة أبي راس الناصري بقيمة أدبية وتاريخية كبيرة، إذ لم تقتصر على عرض أحداث الرحلة ومسارها فحسب، بل تضمنت جوانب متعددة جعلت منها أثرًا مهمًا في التراث العربي. فقد عكست شخصية الرحالة وثقافته الواسعة، كما حفظت كثيرًا من الأخبار والأحداث والمشاهد التي عاصرها خلال تنقلاته، الأمر الذي أكسبها أهمية خاصة وجعلها تجمع بين الفائدة الأدبية والتوثيق التاريخي. ومن هذا المنطلق يمكن الوقوف على أبرز القيم الأدبية والتاريخية التي تضمنتها الرحلة.

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص24.

[2] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر نفسه، ص73، 74.

***أولا:*** القيمة الأدبية للرحلة:

وتتجسد القيمة الأدبية للرحلة في جملة من الخصائص الفنية واللغوية التي أكسبتها طابعًا أدبيًا مميزًا، وأسهمت في إبراز تجربة الرحالة وما تضمنته من مشاهدات وأحداث مختلفة.

***ويمكن إبراز هذه الخصائص من خلال:***

- ***اللغة***، عند القراءة الأولى لكتاب أبو راس الناصري، قد يظن القارئ أن لغته صعبة ومعقدة ويأخذ انطباعًا أوليًا بصعوبة فهمه، وهو ما حدث معي في البداية، غير أنه مع مواصلة القراءة وبشكل متسلسل يتبين أن لغته في الحقيقة بسيطة وواضحة وسهلة الفهم، وتتميز بنوع من النغمة الموسيقية التي تضفي جمالية على النص. حيث يبرز هذا من خلال:

_ ***فصاحة اللغة ووضوحها:*** تتجلى فصاحة اللغة ووضوحها في رحلة أبو راس الناصري من خلال اعتماده أسلوبًا لغويًا بسيطًا ومباشرًا في التعبير عن أفكاره ومشاهداته، بعيدًا عن التعقيد والغموض، مما جعل نص الرحلة سهل الفهم للقارئ. كما اتسمت لغته بالدقة في اختيار الألفاظ وحسن توظيفها، بحيث تؤدي المعنى المراد بوضوح، وهو ما يعكس تمكنه من اللغة وقدرته على إيصال تجربته بأسلوب فصيح يجمع بين السلاسة وقوة الدلالة.

كمثال على ذلك:

- ولما رجعت من فاس، دخلت تلمسان... ص107.
- اجتمعت بعالم الدنيا على الإطلاق... ص110.
- لقيت الفقيه النبيه الأنبيس، الشيخ... ص106.
- ولقيت أيضا بالجزائر فقيهها... ص95.
- ولما سمع بي علماء البلد أتوني للسلام... ص98.

_ **المعجم اللغوي:** يتمثل تنوع المعجم اللغوي في رحلة أبو راس الناصري في استعماله لكلمات وألفاظ متعددة ترتبط بطبيعة الموضوعات التي تناولها في رحلته، حيث نجد ألفاظًا دينية تظهر عند حديثه عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، إلى جانب ألفاظ علمية تتجلى عند تناوله للمسائل العلمية والمناظرات التي خاضها مع بعض العلماء، كما تظهر ألفاظ اجتماعية في وصفه لأحوال الناس والمجتمعات التي زارها خلال تنقلاته. وهذا التنوع

في المعجم اللغوي يعكس ثراء لغته وقدرته على التعبير عن مختلف الجوانب التي عايشها بطريقة واضحة ومفهومة.

أمثلة على ذلك:

- ألا ترى أن إرام ذات العماد...ص92.
- قام رسول الله صلى الله عليه وسلم...ص103.
- وقد قال لي بمجلس حكمه... ص95.
- حتى ذكرنا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام...ص99.
- والمباني الباهية...ص101.

**_ صيغ التفضيل:** يتجلى استعمال صيغ التفضيل في رحلة أبو راس الناصري من خلال اعتماده عليها في وصف الأشخاص والأشياء التي عاينها خلال تنقلاته، وهي صيغ استعملها لإبراز الصفات الإيجابية ورفع درجة المدح في الوصف. كما ساهم هذا الأسلوب في تقوية التعبير ومنح النص طابعًا لغويًا واضحًا يجمع بين البساطة والجمالية في آن واحد.

أمثلة عن ذلك:

- أسوة، أصيل...ص96.
- الأمجد، الأنجد، الأسعد، الأصعد...ص98.
- الأمثل، الأفضل، الأحفل، الأكمل، الأنبل، الأقبل الأجمل...ص100.

في الختام، يتبين أن القيمة الأدبية في رحلة أبو راس الناصري تقوم على ما تميز به النص من خصائص لغوية وفنية متنوعة، جمعت بين وضوح التعبير وسلاسة الأسلوب من جهة، وجمال التصوير وتنوع طرق العرض من جهة أخرى. وقد ساهمت هذه العناصر في إضفاء طابع أدبي واضح على الرحلة، وجعلها عملًا يعكس مهارة الرحالة وقدرته على نقل تجربته بأسلوب يجمع بين البساطة والجمالية.

- ***الأسلوب***، يُعدّ الأسلوب من أبرز العناصر التي تسهم في إبراز القيمة الأدبية للرحلة، إذ اعتمد أبو راس الناصري أسلوبًا مباشرًا وواضحًا في نقل مشاهداته وأحداث رحلته، مما سهل على القارئ فهم مضامين النص وتتبع مسار الرحلة. وقد تنوعت الأساليب

الموظفة في الرحلة بين السرد والوصف والحوار، إلى جانب توظيف الشعر في بعض المواضع، وهو ما يعكس قدرة الرحالة على عرض تجربته بأسلوب يجمع بين البساطة والتنوع. حيث نوضح هذا من خلال:

ـ **السرد والوصف**، يظهر السرد والوصف من بين الأساليب البارزة في رحلة أبي راس الناصري، فقد شكّل السرد وسيلة لعرض أحداث الرحلة وتتبع مراحلها المختلفة، في حين أسهم الوصف في نقل صورة عن الأماكن التي زارها وما شاهده خلال تنقلاته. وقد جاء الوصف مرتبطًا بالسرد في كثير من المواضع، الأمر الذي ساعد على تقديم الأحداث بصورة أكثر وضوحًا، وأبرز مختلف التفاصيل التي سجلها الرحالة في أثناء رحلته.

أمثلة عن ذلك:

- ورحلت إلى مدينة فاس، محل العلم والإيناس، والتقريب والتبعيد لأناس... ص101.
- ثم ذهبت إلى تونس أم البلاد، ومثوى الطارق والتلاد... ص108.
- ثم ركبت البحر إلى مصر، البلد الذي ليس لعمر ولا زيد... ص115.
- ثم رحلت إلى ينبوع البحر، مأوى الغريب والايلاف... ص118.
- ثم رحلت إلى أم القرى، ذات المكارم والعلى والعرى... ص118.

ـ **الحوار**، يظهر الحوار بكثرة في رحلة أبي راس الناصري، خاصة في الباب الثاني الموسوم بـ«في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام»، حيث نقل الرحالة العديد من المناقشات والحوارات التي دارت بينه وبين الشيوخ والعلماء الذين التقاهم خلال رحلته. كما يبرز الحوار في الباب الثالث الموسوم بـ«في الأسئلة وما يتعلق بها»، من خلال عرض مجموعة من الأسئلة والأجوبة حول قضايا مختلفة. وقد أسهم هذا الأسلوب في إبراز الجانب العلمي والفكري للرحلة، وعكس طبيعة التواصل العلمي الذي كان قائمًا بين العلماء في ذلك العصر.

أمثلة عن ذلك:

- **قلت:** ما سندكم في ترك هذا الأدب، **فقالوا:** تلك عادتنا، **فقلت:** لم تستدلوا بنقل على ذلك، **فقالوا:** وأي نقل هذا؟ **فقلت**... ص103.

- **فقال لي** مؤدب الصبيان: لا أناولك هذه الملعقة حتى تعرفني بحكم الله في الأكل بها، **فقلت:** ذكر لي بعض الثقات أنّه لا بأس بالأكل بها... ص 104.
- وسئلت بالمدينة المنورة على صاحبها ألف صلاة وألف سلام عن العقائد، فأجبت بحمد الله تعالى الهادي صفوة العبيد الى المنهج الرشيد، والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد، بحراسة عقائدهم... ص142.

**ـ توظيف الشعر**، وقد برز أسلوب الشعر في رحلة أبي راس الناصري من خلال الأبيات الشعرية التي أوردها في مواضع متعددة من رحلته، والتي كانت في أغلبها مما قيل في مدحه والثناء عليه. وقد حرص الرحالة على تضمين هذه الأبيات ضمن أحداث الرحلة، فكانت تعكس ما حظي به من تقدير ومكانة لدى بعض العلماء والأدباء الذين التقاهم. كما أضفت هذه الأشعار بعدًا أدبيًا على الرحلة، وأسهمت في تنويع المادة الواردة فيها، مما جعلها تجمع بين الفائدة والتعبير الأدبي.

مثال عن ذلك:

- ما أورده الرحالة من أبيات نظمها تلميذه الشيخ السنوسي في مدحه، مشيدًا بعلمه ومكانته بين أهل العلم. قوله:

أَنَا لهُ إِيــاكَ ذو المعَالِى مَنْ لهُ وَغْـرُ العِلِمِ كَالْوَطايَا

فإن تَجِـــيء لهُ بِمُعضَلاتٍ كشَفَ عَنْهَا الـرَّان والـغَطايّا

ذاك أبــو راس نَاصِرَ الدِّيْنِ النَّاصـرِيَ طـلاعَ الـثنـــايَا[1]

وفي الختام، يتبين أن القيمة الأدبية في رحلة أبي راس الناصري تقوم على ما تميزت به من خصائص لغوية وأسلوبية متنوعة، جمعت بين وضوح اللغة وفصاحتها وتنوع أساليب التعبير. فقد اعتمد الرحالة لغة بسيطة وواضحة، كما وظف مجموعة من الأساليب الأدبية كالسرد والوصف والحوار والشعر، مما أضفى على الرحلة طابعًا أدبيًا مميزًا. وقد ساهمت هذه العناصر في تقديم الأحداث والمشاهد بصورة أكثر وضوحًا، وجعلت الرحلة تتجاوز

[1] ينظر: محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته، المصدر السابق، ص69.

كونها مجرد تسجيل لأحداث السفر والتنقل، لتصبح عملًا أدبيًا يعكس ثقافة الرحالة وسعة اطلاعه وقدرته على عرض تجربته بأسلوب يجمع بين البساطة والتنوع.

***ثانيا:*** القيمة التاريخية لرحلة:

لا تقتصر رحلة أبي راس الناصري على الجانب الأدبي فحسب، بل تتضمن أيضًا جوانب تاريخية مهمة، من خلال ما اشتملت عليه من معلومات تتعلق بالأحداث والأوضاع التي شهدها العهد العثماني. فقد أورد الرحالة العديد من الوقائع التي عاصرها أو سمع بها، مما جعل رحلته تتجاوز مجرد تسجيل مشاهدات السفر إلى نقل صورة عن بعض جوانب الحياة في تلك الفترة. ومن هنا تبرز القيمة التاريخية للرحلة باعتبارها مصدرًا يمد القارئ بمعلومات عن عصر الرحالة وأحواله.

**ومن أبرز هذه المظاهر:**

**_الأحداث التاريخية:** تظهر القيمة التاريخية للرحلة من خلال ما تضمنته من إشارات إلى عدد من الأحداث التي عرفها العهد العثماني. وكما ذُكر سابقًا، فقد أشار أبو راس الناصري إلى بعض الحروب والفتن التي شهدتها تلك الفترة، كما تحدث عن المجاعات والأمراض التي انتشرت بين الناس وخلفت آثارًا واضحة على حياتهم. ومن خلال ذكر هذه الأحداث، سعى الرحالة إلى نقل صورة عن الواقع الذي عاشه المجتمع آنذاك، وإبراز ما تعرض له السكان من معاناة وصعوبات نتيجة تلك الأزمات. ولم يقتصر اهتمامه على ذكر الوقائع فحسب، بل حرص أيضًا على الإشارة إلى ما ترتب عنها من آثار مست مختلف جوانب الحياة. وتكمن أهمية هذه الإشارات في كونها تقدم للقارئ معلومات عن بعض الأوضاع التي سادت في ذلك العصر، مما يجعل الرحلة تتجاوز وصف مشاهدات السفر إلى توثيق جانب من الأحداث التي عاصرها الرحالة أو اطلع عليها. ومن ثم تكتسب الرحلة قيمة تاريخية باعتبارها مصدرًا يسهم في التعرف على بعض ملامح المرحلة التي عاش فيها أبو راس الناصري.

**أمثلة عن ذلك:**

- ✓ وقد خبطتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء بررة... ص24.
- ✓ ما دهمنا من الطاعون... ص24.

✓ معركة عظيمة بين المسلمين والنصارى 'وهران'... ص73.

✓ فلا ترى إلا نحرا يلازم نحرا... ص74.

**_ الشخصيات البارزة:** كما تتجلى القيمة التاريخية للرحلة من خلال الشخصيات التي ذكرها أبو راس الناصري في أثناء تنقلاته، حيث أورد أسماء عدد من العلماء والشيوخ الذين التقى بهم في مختلف المناطق التي زارها. وقد حرص على الإشارة إلى مكانتهم وما جمعه بهم من لقاءات، الأمر الذي يقدم للقارئ صورة عن أبرز الشخصيات التي كانت حاضرة في ذلك العصر. كما تكشف هذه الإشارات عن طبيعة العلاقات التي كانت تربط بين أهل العلم، وعن مكانة الرحلة في توطيد الصلات العلمية وتبادل المعارف بين مختلف الأقاليم. ومن خلال تتبع هذه الشخصيات يمكن الوقوف على جانب من النشاط العلمي الذي عرفته تلك الفترة، والتعرف على بعض الأسماء التي كان لها حضور في الحياة الفكرية والدينية آنذاك. لذلك لا يقتصر دور هذه الشخصيات على كونها جزءًا من أحداث الرحلة، بل تمثل عنصرًا مهمًا يسهم في التعرف على ملامح العصر الذي عاش فيه الرحالة.

**ومن خلال ما سبق،** يتضح أن رحلة أبي راس الناصري لا تقتصر على تسجيل مشاهدات الرحلة وأحداثها، بل تتجاوز ذلك لتكشف عن قيمة أدبية وتاريخية واضحة. فقد تجلت قيمتها الأدبية فيما تميزت به من خصائص لغوية وأسلوبية متنوعة، في حين برزت قيمتها التاريخية من خلال ما تضمنته من إشارات إلى بعض الأحداث والشخصيات التي عاصرت الرحالة. وهو ما يجعل الرحلة وثيقة مهمة تجمع بين البعد الأدبي والتاريخي.

**وفي ختام هذا الفصل،** يتضح أن رحلة أبي راس الناصري تمثل نموذجًا غنيًا في أدب الرحلات، لما تضمنته من عناصر متنوعة أسهمت في إبراز أهميتها. فقد كشفت دراسة مستويات السرد عن تعدد الأشكال السردية التي اعتمدها الرحالة في عرض أحداث رحلته، كما أبرزت موضوعات الرحلة اتساع مجالها وتنوع مضامينها من خلال تنقلاته داخل الوطن الجزائري وخارجه. ومن جهة أخرى، أظهرت الأبعاد الفكرية والأدبية ما تحمله الرحلة من مضامين دينية وعلمية واجتماعية، إلى جانب ما تتميز به من قيمة أدبية وتاريخية. ومن ثم، تبدو الرحلة نصًا يجمع بين التوثيق والتعبير الأدبي، ويعكس جوانب متعددة من تجربة أبي راس الناصري وعصره.

***أهم النتائج المتوصل إليها:***

- بينت الدراسة أن الرحلة في اللغة تدل على الانتقال والتنقل من مكان إلى آخر، أما اصطلاحًا فهي نص يجمع بين تسجيل المشاهدات ونقل التجارب التي يكتسبها الرحالة خلال أسفاره.
- يعد أدب الرحلات من الفنون النثرية التي حظيت بمكانة مهمة في التراث العربي، وقد عرف تطورًا ملحوظًا عبر مختلف العصور.
- تنوعت الرحلات العربية من حيث موضوعاتها وأهدافها، مما أسهم في إثراء هذا الفن وتوسيع مجالاته.
- يعد أبو راس الناصري من أبرز الرحالة الجزائريين الذين تركوا أثرًا واضحًا في أدب الرحلات من خلال مؤلفه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته".
- كشفت الدراسة أن الرحلة تقوم على مستويات سردية متعددة، تمثلت في السرد الابتدائي والسرد الثانوي، مما أسهم في بناء الأحداث وتنظيمها.
- تنوعت موضوعات الرحلة بين الرحلات داخل الوطن الجزائري وخارجه، الأمر الذي أتاح للرحالة تسجيل مختلف مشاهداته وتجاربه.
- أبرزت الرحلة أبعادًا دينية وعلمية من خلال اللقاءات التي جمعت الرحالة بالعلماء والشيوخ وما دار بينهم من مناقشات وأسئلة ومراجعات.
- عكست الرحلة عددًا من المظاهر الاجتماعية السائدة في عصر الرحالة، كما سجلت بعض الأوضاع التي عاشها المجتمع آنذاك.
- تميزت الرحلة بقيمة أدبية واضحة تجلت في لغتها وأسلوبها وتنوع وسائل التعبير فيها.
- تضمنت الرحلة معطيات تاريخية مهمة من خلال ما ورد فيها من أحداث وشخصيات، مما أكسبها قيمة تاريخية وجعلها مصدرًا يسهم في التعرف على جوانب من عصر الرحالة.
- تؤكد رحلة أبي راس الناصري أهمية أدب الرحلات بوصفه مجالًا يجمع بين التوثيق والمعرفة والتعبير الأدبي.

خاتمة

# الخـــاتـــمة

وفي ختام هذه الدراسة، يتبين أن أدب الرحلات يعد من أهم الفنون النثرية التي عرفها الأدب العربي، لما يحمله من قيمة معرفية وأدبية وتاريخية كبيرة. فقد أسهم هذا الفن في نقل صورة واضحة عن مختلف المجتمعات والبلدان التي زارها الرحالة، وسجل مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية التي عايشها خلال أسفاره. ولم يكن أدب الرحلات مجرد وصف للأماكن والمسافات، بل تجاوز ذلك ليصبح وسيلة للتعريف بالشعوب وعاداتها وتقاليدها، ونقل الخبرات والمعارف بين مختلف الأقطار، الأمر الذي جعله مصدرًا مهمًا من مصادر المعرفة في التراث العربي.

كما ساهم أدب الرحلات في توثيق العديد من الأحداث والوقائع التي قد لا نجدها في المصادر التاريخية الأخرى، لذلك اعتمد عليه الباحثون والمؤرخون في دراسة أحوال المجتمعات وتطورها عبر العصور. وقد شكلت الرحلات العربية سجلًا حضاريًا وثقافيًا مهمًا، حفظ كثيرًا من المظاهر التي كانت سائدة في أزمنة مختلفة، وساعدت على التعرف على طبيعة العلاقات التي ربطت بين الشعوب والمناطق المتباعدة. وإلى جانب ذلك، أسهمت الرحلات في توسيع آفاق المعرفة الجغرافية لدى العرب، من خلال ما قدمته من أوصاف دقيقة للمدن والبلدان والمعالم التي زارها الرحالة.

ولم تقتصر أهمية أدب الرحلات على الجانب المعرفي والتوثيقي فحسب، بل امتدت إلى الجانب الأدبي أيضًا، إذ تميزت نصوصه بتنوع أساليبها الفنية واعتمادها على السرد والوصف والحوار، إلى جانب الاستشهاد بالشعر والأخبار والحكايات. وقد منح هذا التنوع الرحلة طابعًا أدبيًا خاصًا جعلها تجمع بين الفائدة والمتعة، وبين نقل الواقع والتعبير عنه بأسلوب أدبي مميز. ولهذا احتل أدب الرحلات مكانة بارزة في الأدب العربي، وظل مصدرًا ثريًا يستمد منه الباحثون والدارسون الكثير من المعلومات والمعارف.

وفي هذا الإطار تندرج رحلة أبي راس الناصري «فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته»، التي تمثل نموذجًا مهمًا من نماذج الرحلات العربية. وقد كشفت الدراسة أن

# الخـــاتـــمة

هذه الرحلة لم تكن مجرد تسجيل لمسار السفر والتنقل بين البلدان، بل جاءت حافلة بالمعارف والمشاهدات التي تعكس ثقافة الرحالة واهتماماته المختلفة. فعلى الرغم من أن الدافع الأساسي للرحلة كان دافعًا دينيًا تمثل في زيارة بيت الله الحرام وأداء مناسك الحج، فإنها اتخذت طابعًا علميًا واضحًا، ظهر من خلال كثرة لقاءات أبي راس بالعلماء والشيوخ، وحرصه على حضور مجالس العلم، وتدوين ما دار فيها من مناقشات وأسئلة ومراجعات.

كما أظهرت الدراسة أن الرحلة تضمنت أبعادًا اجتماعية متعددة، إذ سجل الرحالة جملة من المظاهر الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره، ووثق بعض الأحداث التي مست حياة الناس، كالفتن والمجاعات والأمراض وغيرها من الوقائع التي عكست واقع المجتمع في تلك الفترة. وإلى جانب ذلك، قدمت الرحلة مادة تاريخية مهمة من خلال ما تضمنته من إشارات إلى شخصيات وأحداث عاصرها الرحالة، الأمر الذي أكسبها قيمة تاريخية لا تقل أهمية عن قيمتها الأدبية.

ومن الناحية الفنية، كشفت الدراسة عن تنوع الأساليب التي اعتمدها أبو راس الناصري في بناء رحلته، حيث وظف السرد والوصف والحوار، كما استعان بالشعر في مواضع متعددة، مما أضفى على النص بعدًا أدبيًا واضحًا. وقد ساهمت هذه العناصر مجتمعة في إثراء الرحلة ومنحها خصوصيتها داخل مدونة أدب الرحلات العربي.

وعليه، يمكن القول إن رحلة أبي راس الناصري تعد وثيقة أدبية وتاريخية مهمة، تعكس جانبًا من الحياة الفكرية والاجتماعية في عصره، وتبرز قيمة أدب الرحلات بوصفه فنًا يجمع بين التوثيق والمعرفة والتعبير الأدبي. كما تؤكد هذه الرحلة المكانة التي يحتلها أدب الرحلات في الأدب العربي، لما يقدمه من مادة غنية تسهم في حفظ التراث والكشف عن جوانب متعددة من تاريخ الأمة العربية والإسلامية وحضارتها.

***الملخص:***

يتناول هذا البحث الرحلة الأدبية عند أبي راس الناصري من خلال مؤلفه «فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته»، بهدف الكشف عن أهم خصائصها وأبعادها المختلفة. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، إلى جانب المنهج التاريخي، بما يتناسب مع طبيعة الموضوع.

وقد أظهرت الدراسة أن الرحلة تمثل نموذجًا مهمًا في أدب الرحلات العربي، لما تتضمنه من أبعاد دينية وعلمية واجتماعية، فضلًا عن قيمتها الأدبية والتاريخية. كما بينت أن هذا العمل لا يقتصر على تسجيل أحداث السفر والتنقل، بل يقدم مادة معرفية تسهم في التعرف على جوانب متعددة من حياة الرحالة وعصره.

***Summary:***

This research studies the travel literature of Abu Ras Al-Nasiri through his work *"Fath Al-Ilah wa Manatuhu fi Al-Tahadduth bi Fadl Rabbi wa Ni'matihi"*, aiming to highlight its main artistic, intellectual, and historical dimensions. The study adopts a descriptive analytical approach to analyze the components and features of the travel narrative.

The study concludes that travel literature is an important prose genre in Arabic literary heritage due to its diverse knowledge content. It also shows that Abu Ras Al-Nasiri's travel account represents a prominent model that combines literary narration with historical documentation through events, figures, and observations experienced by the traveler. In addition, the work reflects religious, scientific, and social dimensions, which give it signifiant literary and historial value.

قائمة
المصادر والمراجع

**أولًا: القرآن الكريم:**

- القرآن الكريم: سورة قريش .
- القرآن الكريم: سورة المجادلة .
- القرآن الكريم: سورة القصص .
- القرآن الكريم: سورة الشورى.

**ثانيًا: المصادر والمراجع:**


- أبو راس الناصر المعسكري، زهر الشماريخ في علم التاريخ، تنسيق: بن عمر حمدادو، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران – الجزائر، 2016م.
- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج2، مطبعة بير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1909م.
- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج1، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2011م.
- ابن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، 1968م.
- بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف، بيروت، 1864م.
- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط7، 1994م.
- سميرة أنساعد، الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري، الوكالة الإفريقية للإنتاج السينمائي والثقافي، الجزائر، ط1، 2011م.
- سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، دون تاريخ.

- صلاح الدين الشامي، مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد يناير 1983م.
- مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر، تح وتق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2009م.
- محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.
- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط2، 2002م.
- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، مكتبة الوفاء، القاهرة، ط1، 1995م.
- نوال الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية المغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2008م.

# الفهرس

# الفهرس:

**البسملة**

**الإهداء**

***الشكر***

*مقدمة* ..... Erreur ! Signet non défini.

**الفصل الأول الإطار المفاهيمي والتاريخي لأدب الرحلة ..... 2**

***المبحث الأول:* مفهوم الرحلة ..... 2**

***أولا:*** الرحلة لغة ..... 2

***ثانيا:*** اصطلاحا ..... 4

***المبحث الثاني:* أدب الرحلة في التراث العربي ..... 7**

***أولا:*** نشأة أدب الرحلة وتطوره ..... 7

***ثانيا:*** أنواع أدب الرحلات في التراث العربي ..... 14

***المبحث الثالث:* التعريف بالرّحالة ..... 19**

***أولا:*** ترجمة أبو راس الناصري ..... 19

***ثانيا:*** التعريف بكتاب "فتح الإله ومنته" ..... 28

**الفصل الثاني الدراسة التطبيقية لرحلة (فتح الإله ومنته) ..... 35**

***المبحث الأول:* مستويات السرد في الرحلة ..... 35**

***1-السرد الابتدائي*** ..... 38

***2_ السرد الثانوي*** ..... 40

***المبحث الثاني:* موضوعات الرحلة ..... 43**

***1- الرحلة داخل الوطن*** ..... 44

***2- الرحلة خارج الوطن*** ..... 48

***المبحث الثالث:* الأبعاد الفكرية والأدبية لرحلة ..... 56**

***1_ البعد الديني والعلمي*** ..... 56

***2_ البعد الاجتماعي*** ..... 64

***3_ القيمة الأدبية والتاريخية لرحلة*** ..... 68

*أهم النتائج المتوصل إليها* ..... **75**

**الخـــاتـــمـة** ..... **77**

*الملخص:* ..... **79**

**قائمـة المصادر والمـراجع** ..... **81**

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria

Ministry of Higher Education
And Scientific Research
University Abdelhamid Ibn Badis
Mostaganem
Faculty of Arabic Literature And Arts

وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس
مستغانم
كلية الأدب العربي و الفنون

قسم الدراسات اللغوية والأدبية

# رخصة إيداع النسخة النهائية لمذكرة الماستر

أنا الممضي(ة) أسفله الأستاذ(ة): محمد قادة

الرتبة العلمية: استاذ التعليم العالي

بصفتي مشرفا(ة) على مذكرة الماستر الخاصة بالطالب(ة):

الاسم واللقب: مصداق آية

التخصص: أدب حديث ومعاصر

السنة الجامعية: 2026-2025

والموسومة: "أدب الرحلة الوجيزة عند أبو راس الناصري التمسكري من خلال مؤلفه - فتح الإله ومنته -"

أشهد أن الطالب(ة) قد أتم(ت) إنجاز المذكرة وفق التوجيهات العلمية والمنهجية المطلوبة. وبعد مناقشتها والأخذ بعين الاعتبار ملاحظات لجنة المناقشة وتصحيحها، أرخص له(ا) بإيداع النسخة النهائية للمذكرة لدى مكتبة الكلية.

مستغانم في: 2026.06.05

إمضاء الأستاذ المشرف

أ. الدكتور: محمد قادة
كلية الآداب والفنون

مصادقة رئيس القسم

جامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانم
قسم الدراسات اللغوية والأدبية
كلية الأدب العربي والفنون

أ.د. [illegible]
قسم الدراسات اللغوية والأدبية